# فى العصر الحديث

## المضحكخانه

رافقت المصريين هذه الروح الفكهة فى عصرهم الحديث ، وأكبر من اشتهروا بها فى النصف الثانى من القرن الماضى الشيخ « حسن الآلاتى » المتوفى سنة ١٨٨٩ وقد بدأ حياته بالدراسة فى الأزهر ، ثم تحول إلى الغناء ، فارتقى به ووضع كثيرا من أغانيه ، ومن أجل ذلك لقب بالآلاتى ، وكان خفيف الظل كثير الدعابة . وتروى عنه نوادر وفكاهات كثيرة ، من ذلك أن أحد الوزراء أهداه « مركوبا » فى يوم عيد ، فلما وصلت إليه الهدية أرسل يشكره قائلا : « إن كل شخص يحشر يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويقال إنه عاد إلى بيته يوما فسأل زوجته : « ماذا أعددت من الطعام » ، فقالت : « ليس عندنا طبيخ ، ولكن أعددنا لك خبزا

وشَماما » ، فجلس يأكل من الخبز والشمام ، وبينما هو فى طعامه إذ سمع رجلين يتشاجران فى لطريق ، وأحدهما يسب الآخر قائلا : « يارجل ياطبيخ » فأخذ الرغيف فى يده ، وخرج إليهما مسرعا ، وهو يقول : « أين الرجل الطبيخ ؟ » فضحك الناس وانفضت المشاجرة . وفقد بصره فى أواخر حياته ، وتصادف أن سمع رجلا يتغنى بين قوم بأغنية من أغانيه ، وهو يقول فى أثناء غنائه : « أنا اليوم أغنى كالشيخ حسن الآلاتى تماما » فقال له على الفور : « لا ، بس ناقص العمى ، يابنى » .

وله كتاب سماه ترويح النفوس يقع فى جزأين ، وقد بناه من الأزجال الفكاهية والمواقف الهزلية ، وهو يحدثنا فى مقدمته أنه اتخذ وجماعة من رفقائه الفكهين مقهى فى حى الخليفة سموه « المضحكخانه » كانوا يجتمعون فيه على التقليس والتندير والفكاهة ، وقد نصب نفسه رئيسا على الجماعة . ثم يأخذ فى سرد هزلياته من أزجال وغير أزجال . وهو فى أكثره يقلب المواقف الجادة من مثل الدعاوى والعرضحالات إلى مواقف هازلة ، وكثيرا ما كان يتعرض للتهنئة بزفاف فيصوغه هذه الصياغة أو ما يماثلها :

« تهنئة للسيد العتيد الأعمى البليد . قد سرَّنا ما سمعناه من النائحة ، من عقد خرابيش المصونة ، الدرة المكنونة ، وإنه لما خفقت بالمضحكخانة أعلام السرور ، وعمَّ جميع المحبين الكدر والحبور ، بزواج البنت ، الست نسيم الصبا هانم ، سلالة الأخيار

البهايم لحضرة الشاب النشال ، الذى صار من الآن لقديم الزمان كثير المال فقير الحال » .

ويمضى فى مثل هذا الهزل الذى يصيبنا بغير قليل من الذهول لكثرة مايرتفع بنا ويهبط فى هذا المنحدر من منحدرات الضحك وهو منحدر يقوم على المفارقات إذ يذكر فى المديح مثلا الكلمة وضدها على نحو مايلاحظ القارىء فى أوصاف العروس السابقة وفى نحو قوله فى افتتاح خطاب : « إلى السيد المهاب والضبع الوثاب الصادق الكذاب عالم القصر ( فى الصلاة ) ومصلى الظهر وتارك العصر ، من تهابه الخرفان ولا تحتقره الشجعان » . وقد أكثر من الأزجال فى كتابه . وربما كان ألطفها ماأنشده بمناسبة زواج ابنته يصف ماأقامه لها من مهرجان حافل ، وهو يستهله على هذا النمط :

أحمد الله تمت افراحى الجليله
والحسود مكمود وأحزانه طويله
كنت يوم فى المندرة نايم ممطط
بعد موت أمى وأنا زعلان مزقطط
مادريت إلا ونسوان جَتْ بطبلة
اللى لابسه حبّره واللى لابسه سبله
قلت للزوجه الحقينى يا فلانه
قالت : اسكت دول نساء أصحاب أمانه

فيهم الحرة الكريمة أهل السيادة
ست دلّالة حمير تسمى سعاده

ثم يقول :

فى سنة خمسه وألف وتلتميَّه
فى ربيع الثانى كان عقد البُنَيَّه
والولد قاصر وأمه له وِليَّه
أما أبوه نفسه مايطفيش الفتيله

قالت الزوجة الصداق جاب طقم صينى .
قلت مقصودك بخزيك تقمصينى
لما أنام عريان تعالى قرفصينى
إن لقيت شىء خديه وانتى الوكيله

راحت السَّكْره وجاتنى ألف فكره
صرت أحسب فى الجهاز كرّه بكره
قالت اخوانى الكرام أهل المبره
كل ماتطلب يجيك ولك الجميله

صار جهاز البنت يدخل بالمحارم
شىء كتير عم الأجانب والمحارم
من أكارم دأبهم فعل المكارم
لكن « الشمسى » بدأنا بالفضيله

والهمام من يأتى بابه كل وافد
أعنى عثمان بك رفيع المجد خالد
ابن قطب العصر راشد كل قاصد
اجعله فى دفع المهالك لك وسيله
وانتهى لى كل خير من بذل فكرى
واشتهر بين الخلايق فضل صبرى
جات مهمات الفرح والعرس تجرى
مثل ماتجرى ورا الناقه الفصيله
قلت للطباخ تعال اكتب لى قايمه
لاجل تبقى شهرتى فى مصر قايمه
جا حِلف مايأخذ إلا الأجره صايمه
كان جدع صادق أمين إيده طويله
قال لى اكتب مركبين ملح انجليزى
وأربعين فدان فسيخ مدموغ باريزى
ألف قنطار توم وربع فريك عزيزى
غير حصانين فجل وأردبين بِليله
ألف قنطار زيت قزازه للقطايف
لتربية فول مدمس للخشايف
مش قنطار للبلوظة والنواشف
عدس فدانين وقطعة جنزبيله

طن بقدونس بسله ألف رزمه
يمحوا السلطة يخلّوها جميله
بعد عشرين عصر من شوال افندى
ليلة السبت ابتدت بالفرح عندى
من عشاها والأمم تقطر وتندى
مثل كثبان رمل من وادى مهيله
فجر يوم السبت لاح وفضلت أهاتى
دور أقول ياناس ودور يامسلكاتى
حين سمعنى استغيث روى لهاتى
دق ليله ماها ليله مثيله

ويستمر فى هذا الهزل الذى كان يملأ به « المضحكخانه العلية » والذى كان دائما يتحول إلى تهريج واثارة للضحك وكأن الآلاتى أراجوز والناس من حوله يتفرجون من أمثال حسن ( بك ) الشمسى وأحمد ( باشا ) راشد وعبد الله ( باشا ) فكرى ، وهم يضحكون وهو لا يكف عن تهريجه وهزله .

## ألقاب وأدباء

من طريف ما كان فى عصر إسماعيل وابنه توفيق أن إبراهيم طاهر وعبد الحميد نافع أخذا يستعرضان الأدباء والشعراء فى عصرهما ويعطيان لكل أديب ولكل شاعر لقبا على سبيل التندر.

فمن ذلك أن محمود صفوت الساعاتى كان نحيفا قصيرا كثير الحركة والتلفت حتى إنه يشبه الديك فى كثرة وثباته ولفتاته، فسمياه ديك الجن وهو اسم شاعر قديم. وكان السيد على أبو النصر نديم إسماعيل وشاعره طويلا طولا مفرطا، فسمياه ابن العماد، وهو من المؤلفين الماضين. واشتهر على الليثى بالظرف والفكاهة، فسمياه أبا دلامة، وهو اسم نديم عباسى، وكان محمود سامى رشيقا فى القد والقامة، فسمياه ابن رشيق، وكان فى عين السيد صالح مجدى بعض حوص ( ضيق ) فسمياه الأحوص، وكان الشيخ حسين المرصفى ضريرا ذكيا فسمياه أبا العلاء، وكان صهره الشيخ زين المرصفى لا يتكلم إلا قليلا، فسمياه ابن السكيت.

وعلى هذا النحو كانا ينتخبان لاسم أحد المعاصرين من الشعراء أو الكتاب اسم شاعر أو عالم قديم يدلان باشتقاقه على ما يريدان من تصويره. وتبعهما فى ذلك محمد أكمل، فسمى طائفة ممن عاصروه أسماء جديدة مثل ابن المقفع وابن هرمة، وهو اسم شاعر عباسى، وكل ذلك لغرض الضحك والتنديد.

ولم يكن بين المصريين حينئذ أديب أو شاعر إلا وهو يشارك فى هذا الفن من الدعابة والفكاهة ومما يروى من ذلك أن رياض ( باشا ) كان يشغل وظيفة « المهردار » فى عهد إسماعيل، وأمر أن يوضع لكل حجرة فى قصر عابدين عنوان يدل عليها، وكان بين

الغرف غرفة خاصة بالشيخ على الليثى نديم إسماعيل وشاعره ، فأمر أن يكتب عليها « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » مداعبا بذلك الشيخ الليثى ، فلما وقع نظره عليها لم يلبث أن أنشد :

كان عندنا ساقيه عجب تسقى ( رياض ) الجلنار
دوّرنا فيها التور عِصِى دوّرنا فيها ( المهر دار )

والتورية واضحة . ومما يروى عن عبد الله ( باشا ) فكرى أديب القرن الماضى المشهور أنه رأى شيخا يسمى « السمنى » جالسا فى موضع ظاهر للشمس فقال يا شيخ سمنى أما تخاف أن تسيح من الشمس ، فأجابه توا أنا أقدح فكرى .

وكان محمد عثمان جلال مترجم موليير فى القرن الماضى خفيف الروح ميالا للفكاهة والدعابة ومن النكت المستملحة التى تروى عنه أن محمد سكر الكتبى دعاه مع جماعة من الأدباء لتناول الغداء عنده ، وتأخر الغداء ، فدخل محمد سكر يستعجل الطابخين ، وغاب ، وسمع المدعوون « الهاون » يدق دقا شديدًا ، فتساءلوا ترى ماذا يصنعون ؟ فأجاب محمد عثمان جلال على الفور : دول بيكسروا راس سكر . وتأخرت ترقيته فى عهد رياض ( باشا ) ناظر النظار ، فكتب إليه :

الخير على الناس عم وفاض وكل إنسان استكفى

وبس نـا يا عم ريـاض وقعت من خـرق القفـه

ومما كان يتهكم به المصريون ويتندرون به فى مجالسهم أثناء هذه الفترة التركية من حياتهم مصورين عجرفة الترك عليهم بينما يأكلون من عرق جبينهم وخيرات بلادهم هذه السخرية التى كانت تدور على كل لسان قالوا : « إن محمد أغا التركى كان يتسول ويقرع الأبواب فى عنف » فيقال له ؛ « من ؟ » فيقول : « هات حسنة لسيدك محمد أغا »

وعلى نحو ما كانوا يتهكمون بالترك كانوا يتهكمون بالأجانب الذين يبتزون أموال المصريين عن طريق الربا الفاحش ، ويتندرون عليهم ، فمن ذلك أن أحدهم لقى بعض الفلاحين فى يوم شديد البرد ، واسترعى نظر أحدهم أنه لا يلبس قفازا فى يديه ، فلما قال ذلك لبعض رفاقه أجابه توا أنه ليس فى حاجة إلى قفاز مادامت يداه فى داخل جيوبنا . وأخذت تكثر الصحافة الهزلية ، وتكثر فيها الفكاهات السياسية والاجتماعية .

## الصحف الهزلية

لم نكد نوجد لأنفسنا صحافة يومية فى عصر إسماعيل حتى ظهرت صحف هزلية ، تستمد من هذا الجانب الفكه الخالد فينا ،

وزكّاه فيها أننا أخذنا نطلع على الصحافة الغربية ونقتبس مما فيها من سخرية ونقد لاذع فى السياسة وفى المجتمع . وبذلك أخذت فكاهتنا تتحول من الهزل والقفش والتوربة اللفظية إلى كل خلل فى حياتنا السياسية أو حياتنا العامة ، فتستخرج منه السخرية واللفظة المضحكة .

وبذلك خرجت فكاهتنا من طور إلى طور، فاستبدلت بالأشخاص واللغو مصالح الأمة، وبسلوك الفرد سلوك الجماعة . وأشهر من بدأ هذا التطور صنوع وعبد الله نديم، ويعرف الأول بصحيفته الهزلية « أبو نظارة » بينما يعرف الثانى، وهو من زعماء الثورة العرابية، بصحيفتيه : « التنكيت والتبكيت » و « الأستاذ » ونقف وقفة قصيرة عند كل صحيفة من هذه الصحف، ثم نتحدث عن صحف أخرى تلتها .

## أبو نظـــارة

أنشأ يعقوب صنّوع هذه الصحيفة سنة ١٨٧٦ وكانت تجرى على ألسنة المصريين باسم « أبو نضارة » وقد استعان فيها باللغة الدارجة والصور الكاريكاتورية ، وصب شواظا من نار على الخديوى إسماعيل وسياسته الخرقاء وجشعه وبذخه، فأغلق صحيفته سنة ١٨٧٨ ونفاه من البلاد فذهب إلى فرنسا . ومن هناك كان يرسل بصحيفته إلى مصر فى أسماء مستعارة حتى تصل إلى

قرائه، فمرة يسميها « أبو صفارة » ومرة يسميها « الحاوى الكاوى » ونحو ذلك .

وصنوع فى هذه الصحيفة يصور فى وضوح الروح الوطنية التى بثها جمال الدين الأفغانى وتلاميذه من أمثال الشيخ محمد عبده . وكان لصنوع فيها هدفان : مهاجمة الامتيازات الأجنبية ومهاجمة الخديوى إسماعيل وسياسته الحمقاء وظلمه الصارخ للمصريين ، وهو يصور ذلك فى مقالات وقصص ورسوم كاريكاتورية ساخرة . وتارة يسمى إسماعيل شيخ البلد أو شيخ الحارة ، وتارة يسميه « فرعون » إلى غير ذلك من أسماء .

ونعرض لبعض رسومه التى تصور فساد الحكم حينئذ ، فمن ذلك صورة تضم فلاحا هزيلا ، وبجانبه إسماعيل سمينا بطينا وأمامه رئيس وزرائه ، وفى يده اليمنى سلة عليها مأكولات فاخرة وفى يده اليسرى سلة أخرى بها قوارير خمر مختلفة ، وكتب تحت الفلاح « يا مسلمين اشفجوا الفلاح بيموت من الجوع » وكتب تحت إسماعيل على لسانه : « أنا سمنت من اللحم وشرب الخمرة وأنا خايف من الجماعة (يريد الفلاحين) يغلبونا » وكتب تحت الوزير « كلهم (يقصد الفلاحين) فى جيبى ده ، وأنت خليك وراى ياسيدى ولا تسأل ، والأكل الطازة العظيم والشرب الفاخر والتحويش فى الزيادة دائما » . وفى صورة أخرى نرى إسماعيل واقفا ووزيره

ممسكا بفأس والفلاحين غرقى فى مياه النيل. وواضح أن الصورة رمز للسخرة الملعونة. وفى صورة ثالثة نرى إسماعيل يتقدم حاشيته وفى يده مسدس مصوب إلى جمع من الفلاحين تجمهر على باب قصره، وهم يقولون: «يحق لك يافرعون تشرب مُدام (خمر)، وتعمل ولايم وتصطاد حمام، ولا تعطى للفلاح الجعان اللى على باب سرايتك يطلب الإحسان. إنما ربنا أحباله طوال، برضها مصر فيها رجال».

ومن الصور الساخرة صورة يبيع فيها إسماعيل الأهرام، وواضح أنها ترمز إلى تفريط إسماعيل فى حقوق بلاده، وأنه لم يبق فيها على شىء لم يبعه للأجانب، وأنه بصدد أن يبيع الأهرام. حتى الأهرام وأحجارها يريد أن يخرجها من بلاده.

وبجانب هذه الصور تكتب الصحيفة المقالات والمحاورات التمثيلية التى تنتقد سياسة إسماعيل أو فرعون مصر كما تلقبه، وهى تسوق فى أحاديثها عنه تأنيبا وتعنيفا شديدا له. ولا نرتاب فى أن هذه الصحيفة الهزلية تعطى صورة صادقة لإسماعيل وحكمه، وهى أصدق من كثير مما كتب عنه فى كتب التاريخ!

ونجد يعقوب صنوع فى أعدادها التى صدرت بمصر يصور ما كان عليه الفلاحون من بؤس، وكيف كان يشتط إسماعيل وأعوانه فى جمع الضرائب، وهو يسوق ذلك فى شكل محاورات تمثيلية

بين هؤلاء الفلاحين وأعوان إسماعيل من الترك الذين كانوا يحكمون الشعب حكما جائرا ظالما . ويزعم أنها محاورات تاريخية حصلت فى أيام العز سنة ١٢٠٤ للهجرة حتى يحتاط لنفسه ، ويعنونها بعناوين ساخرة من مثل القرداتى ، أو حكم قراقوش . وجعل شخوص محاورة : السنجق ظالم أو غلو ، وطرطور أغا القواص ، وأبو نفوسة شيخ البلد ، ويدور الحوار على العوايد والضرائب والأموال والسخرة . ويجرى على لسان أبى نفوسة احتجاجا على السنجق وما يطلبه من الضرائب الباهظة ، إذ يقول له : « هو انتو خليتوا فى البئر بكرة أو سلبة ، والتور ، وحياة السنجق ، بعناه بربع الثمن . بجا أجيب من الهوا المحابيب (ألفلوس) للعوايد ، والدواهى الحارة دى كلها اللى خربتنا وجفلت ديارنا وفضحتنا على آخر الزمن » . وعلى هذا النحو لا يزال يعقوب صنوع يصف المظالم التى كانت ترهق كاهل الشعب وتجثم على صدره بأثقالها لعهد إسماعيل .

وأغلقت صحيفته - كما أسلفنا - فى سنة ١٨٧٨ ونفى من مصر ، فتوجه إلى باريس ، وهناك أخذ يصدر صحيفته ويرسلها - كما مرّ بنا - إلى مصر بأسماء مستعارة ، حتى يمكن دخولها إلى البلاد . وقد كفى مئونة الحيطة والحذر من إسماعيل وبطشه وبطش أعوانه ، فتحول يكويه ويشويه بسياطه فى صراحة مرة وسخرية لاذعة على نحو ما نجد فى هذه المحاورة التى أجراها

فى أول عدد نشره هناك، وهى تدور بين شيخ الحارة (الخديوى اسماعيل) وأبى نظارة وأبى القلب «الفلاح المصرى» وفيها يقول:

شيخ الحارة – التوبة من دى النوبة، اشفق يابو نظارة، على عمك شيخ الحارة. جريدتك ضربها قاسى، أخاف منها على راسى. دى حطت فى قلبى الرعبة، بأقوالها المخيفة الصعبة. إذا رفعت عنى الجريدة، أرجع لطرايقى الحميدة.

أبو نظارة – أنت عمرك ما تتوب، ولو رجموك بالطوب. دا أنت أمرك عند الجميع معلوم، بقى كيف أشفق عليك يامشوم، والله ما أرحمك، يامطعم الناس للسمك، ياخبيث يامسموم الريق، ياقاتل الصديق.

أبو القلب – ما تشفجش يابو نظارة، الشفجة فى الفاجر ده خسارة، ده قتلنا من الظلم والجور، ونازل علينا زى ما ينزل السواق على التور. داهيه تلمه، وتعتقنا من ظلمه.

ومعروف أن أحوال مصر كانت تتطور فى تلك الايام من سيىء إلى أسوأ فقد قضى إسماعيل بتبذيره على ماليتها الغنية وأنقض ظهرها بديونه التى بلغت بهوسه وجنونه أكثر من مائة مليون جنيه، وتدخلت فرنسا وإنجلترا فى شئونه، وأكرهتاه على أن يعهد رئيس وزرائه الأرمنى نوبار (باشا) إلى ولسن الانجليزى بوزارة المالية وإلى دى بلينير الفرنسى بوزارة الأشغال. ورضخ إسماعيل، وأخذ

يرهق المصريين من أمرهم عسرا بالضرائب الفادحة. ونرى يعقوب صنوع يصور بؤس الفلاحين إزاء هذه الضرائب وما وقع عليهم وعلى البلاد فى هذا العهد المظلم فى محاورة تخيلها قد وقعت فى مجلس الأعيان المصرى (الذى كان قد أنشىء حين ذاك) وهى تجرى على هذه الصورة:

رئيس المجلس - سعادة ناظر (وزير) المالية أرسل لنا إفادة رسمية، باللغة الإنجليزية، لأجل الضرائب الميرية، لسداد الديون المصرية، وتحصيل الأموال المتأخرة لغاية ثمانية وسبعين أفرنجية، ودفع المتأخر من الماهية (كانت الحكومة قد توقفت عن دفع رواتب الموظفين وضاعفت الضريبة السنوية المفروضة على الفلاحين). والذى يتأخر عن السداد بالطريقة الحِبِّية، يعامل بالقوة الجبرية، وتباع أطيانه وموجوداته بمعرفة المديرية، وأفندينا (إسماعيل) قرّ على هذه القضية، فكل منكم يبدى رأيه بالحرية، ولا تخافوا من شىء بالكلية.

الشيخ عبد العال (عمدة حدى القرى) - إن كانت المادة نفاق، فاحنا نقر بالوفاق، وإن كانت حُرِّية، نبدى أفكارنا القلبية.

الرئيس - شوف ياشيخ عبد العال، أنا لا أعرف النضال ولا المحال، وأنا أحب الحرية فتكلم بخلوص نية، وسلامة طوية.

الشيخ عبد العال - المادة مش حاوجة مداولة، ولا كثرة محاورة إحنا قبلنا كل النوائب اللى مرت علينا مع جميع المصائب، وبعنا

ما ورانا وقدامنا، ولا بقاش حاجة أمامنا، ده إحنا ضاع عشمنا فى سى فلسن (وزير المالية الإنجليزى فى وزارة نوبار) والجماعة الأورباوية، وربنا يغنينا بفرجه العميم، ويولّى علينا رجل كريم حليم، ويعتقنا من جور شيخ الحارة (إسماعيل) اللعين اللى سخمط وش الحمارة طين، وأنا، وحياة راسك مافيش فى دارى ولا كيلة غلة، ولا جاموسة ولا عجلة، ولا قرص جلة. فيكفانا ظلم وخسائر، والله أعلم بما فى الضمائر، وما تنطوى عليه السرائر.

الرئيس - وأنت قولك أيه يا شيخ محمد؟

الشيخ محمد (أحد العمد) - إحنا لا نعرف مدير مالية، ولا ناظر خارجية، دول ناس ملاعين يرطنوا بلسانهم الأعوج وهم لابسين بتوع طوال اسمه برانيط، ويدردعوا (يشربوا) نبيذ كثير، ويتغدوا بلحم الخنزير، أما إحنا ناس هوارة، نعرف طيب فى تربية الفرس والحمارة، واعرف سعادتك أننا مانقبلش زيادة ضرائب ولا كثرة مصائب، وعاوزين نخفف المربوط، ولا نسأل عن فلسن ولا مربوط، وأن انفلق شيخ الحارة، ما ندفع ولا باره. وإلا إن كان القصد بحضورنا الآن الضحك علينا زى زمان، فإحنا وحْلانين، وعن ذاتكم مستغنيين. وإن كنتم عاوزين النياشين بتوعكم خذوها، والفلاحين أهى قدامكم كلوها، لأن بلدنا، وحياة راسك، بعدما كانت حايزه كمال اللطافة، أصبحت من كثرة الظلم كوم شقافة.

والله يجازى بن الحرام.

وفى فصل من فصول صنوع الطريفة يصور لنا إسماعيل ساهرا حتى الفجر، يناجى نفسه ،وقد أوشكت السفينة على الغرق وهو مُفْضٍ إلى وساوسه وأوهامه، يسب نفسه ويلعنها ويلعن الأيام التى ساقته إلى ولاية مصر، ونسوق أطرافا من هذه المناجاة:

«راحت عليك يابو السباع، الله يلعن اليوم اللى فيه توليت شيخ حارة، ده كان يوم نحس، وأنا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين، المكتوب على الجبين لازم تراه العيون، نعمل إيه فى طمع الدنيا؟ أدينى صبحت أشقى مخلوقات الله والخوف قاتلنى: مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى، وبرضه مرعوب وكل ما اسمع حد جاى علىَّ، انفزع وقلبى يطب، وأقول فى نفسى: آهم ضباط الجهادية وتلامذة المدارس وأولاد البلد والفلاحين جايين ينتقموا منى ويقبضوا روحى ويأخذوا مفاتيح السهاريج وينهبوا الأموال اللى لميتها بغاية التعب والمشقة. بلا هلس، ده أنا سيدهم فى المكر ولا أخاف من ملك الشياطين. أما الجماعة مستحلفين لى بحتة علقة صَنْعة. ما يطلعش من إيدهم حاجة، البصاصين كثير ومأمور الضبطية جدع. أما أبو نظارة اللعين راح جدد له جرنال ثانى، وقال إنه فى حب الوطن. آهو زى الكلب اللى ينبح، خليه يعوى. آه يا إسماعيل أنت بتسلى غلبك وهمك بالكلام ده، إنما قلبك بيرجف وضميرك فى قلق، أهو الليل بيفوت بطوله، وعينك

ما بتذوق النوم. آدينى سامع تشخير الأغاوات، يابختهم دول مبسوطين ولا هم عارفين الدنيا بتعمل بهم إيه، والناس اللى ما تفهمش الصورة إيه تقول عليهم دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا، آه يامغفلين والله ما أحد محروم غيرى أنا لكونى ما بستلذ لا بأكل ولا بشرب من خوفى أن خدامينى يسمّونى. ولما أخرج من البيت، كلما عدى على شارع وأجد فيه زحمة يبان لى يوم القيامة جاء، وأنظر بين وشمال، ومن لحظة إلى لحظة يتراءى لى أن العالم رايحة تهجم على عربيتى وتهلكنى. آه من عيشتى، ما أمرها، والعمل إيه؟ الشيطان يدبرنى ...»

وواضح ما فى هذا الفصل من تهكم على إسماعيل وما يوحى إليه شيطانه، فهو قلق يائس قد قطع الرجاء، ومع ذلك لا يزال يمنيه خَنَاسه الأمانى، وقد أحس فى عمق غضبَ الشعب عليه وأنه يكاد يطير به طيرة بطيئا سقوطها، ويملأه الرعب والقلق والخوف، حتى من طعامه وشرابه، ولا يغدو أو يروح فى القاهرة إلا ويرى الموت نصب عينيه، فالمصريون متربصون له ولابد أن ينقضّوا عليه ويفتكوا به فتكا ذريعا. وكل ذلك يعرضه يعقوب صنوع فى أسلوبه الساخر. ونراه فى فصل آخر يدير محاورة بين إسماعيل (شيخ الحارة) وابنه توفيق ومعهما بعض الوزراء يحملون أوراقا وحقائب من ناحية وبين عدد من الموظفين مثل عمر شهامة ومجدع وحدق ومعهم مشايخ الأزهر من ناحية ثانية. وهو فى هذه المحاورة يتخيل

المصريين قد ثاروا بإسماعيل ونفوه عن البلاد، وهى تمضى على هذه الشاكلة:

ضجة تسمع من بعيد، هى ضجة الثائرين وبينهم مشايخ الأزهر يحضون على الثورة، ويقول توفيق: حتى المشايخ ضدنا.

شيخ الحارة (إسماعيل): نعطى لهم جراية (خبزا) يسكتوا!

وتصل طلائع الثورة ويسلّ «مجدع» سيفه، وقد رأى إسماعيل يهم بالهرب، فيقول له: طالع تجرى على فين؟ ويتناول «حدق» الأوراق والحقائب التى كانت فى يد أعوان إسماعيل، ويعطيها للضباط والتلاميذ.

عمر شهامة لإسماعيل: آه يا خاسر، ياما عملت فينا؟

حدق: لما توليت يا فرعون، القطر ماكانش مديون، واليوم عليه مائة مليون، والمبالغ دى كلها راحت فين؟

مشايخ الأزهر: بنى بها سرايات، وصرفها فى الفسق والفساد.

عمر شهامة: وبدل ما يساعد الفلاح، ويصلح أحوال الزراعة اللى هى سعادة أهالى القطر، فرعون بسلامته نهبنا وباع أطياننا ومواشينا، وموتنا من الجوع.

مشايخ الأزهر: فرعون كافر وآخرته الجحيم، وربنا كريم حليم.

أبو الخير (إلى الضباط): نسلمكم شيخ الحارة وأولاده ووزيره، اذهبوا بهم إلى الإسكندرية وأنت يا مجدع (باشا) سلمهم

إلى قبطان المركب العثمانية، وهو يجرى اللازم.

وينفذ ذلك الضباط، ويضربون كل من يجرؤ على المعارضة. ويزعق شيخ الحارة: الحارة حارتى وأناشيخها، وأنتم مالكم ومالى.

مشايخ الأزهر: جرجروه، ما تسمعوش كلامه. ويغنى الجميع:

انت فين يابو نظاره تيجى تشوفنا منصورين
على عمك شيخ الحاره وعلى أولاده المنحوسين
النهارده يوم عظيم افرحوا يا أهل النيل

هذه صور ساخرة من المحاورات والمقالات التى كان يكتبها يعقوب صنوع فى مجلته «أبو نظارة» وهى تدل دلالة واضحة على براعته براعة منقطعة النظير، فى التهكم واللذع السياسى وما يحمل من سهام مصمية. وكان كثيرا ما يضيف إلى هذه المقالات والمحاورات أشعارا عامية يصور فيها أطرافا من المهزلة السياسية التى كانت تمثّل حينئذ أمام الشعب كله وفوق أرضه. وقد ينطق إسماعيل بهذه الأشعار، يصف سوء حاله ووبال أمره من مثل قوله:

إيه دى العباره المتعوسه صبحت دوايرى معكوسه
والحسرة فىّ مغروسه دى وقعتى وقعة خرفان
شُرمّ برم حالى غلبان

ما اعرفش إيه منِّ دا الطالع    مقصــودهم أبقى خـالــع
واطلع كده منفَّض قالـع    ياملى لمـا أصبح عـريان
شرم برم حالى غلبان

وجابوا لى عمى الشيخ نوبار    وعـملوه رئـيس الكـبــار
يحمرّ لى عينه زى النار    وأنا قاعد قصاده جَرْبان
شرم برم حالى غلبان

ومازال صنّوع يرمى إسماعيل بصوائب سهامه الشعرية والنثرية، حتى انكشفت غمة حكمه عن صدر مصر، وخُلع سنة ١٨٧٩م . وحمل من بعده على ابنه توفيق وهوسه وحمقه . ولما نشبت ثورة عرابى وتطورت الظروف وحتل الإنجليز مصر ظل يصوِّب إليهم وإلى توفيق حرابا مسمومة من أعداد صحيفته، يضمنها سخريته اللاذعة وتهكمه المرير . وكان يتخذ هذه الحراب غالبا من الشعر العامى على نحو ما نرى فى قوله :

مســتر تــوفيق    ابن إسمــاعيــل
مــالــه رفــيــق    فى وادى النيــل
النـاس سـابـوه    لكــونـه خـــان
مـصــر واخــوه    حــتى الـسـلطان
بــاع لـــلأجنبى    كــل الأصحـاب
أهـبــل وغـبــى    غشـاش كـذاب

فى مصر رجال يخلصوهم
من الأندال اللى باعوهم

وواضح مما قدمنا عن يعقوب صنوع أنه كان يتقن النقد السياسى الساخر إتقانا رائعا، وقد استطاع أن يخرجه فى صور متعددة من الرسم الكاريكاتورى ومن المقالات والمحاورات التمثيلية والشعر. وهو يعد فى ذلك كله نادرة من نوادر زمانه.

## التنكيت والتبكيت

هى أول صحيفة أخرجها عبد الله نديم، وكان ذلك سنة ١٨٨١ م وكانت وجهته فيها خلقية اجتماعية. وهو فيها يكتب تارة باللغة الفصيحة وتارة بالعامية. وهذا نموذج من تنكيته وتبكيته وضع له هذا العنوان: **عربى تفرنج**. قال:

«وُلد لأحد الفلاحين ولد، فسماه زعيط، وتركه يلعب فى التراب، وينام فى الوحل، حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة، فسرحه مع البهائم إلى الغيط، يسوق الساقية ويحوِّل الماء، وكان يعطيه كل يوم أربعة جندولات (أرغفة) وأربعة أمخاخ بصل. وفى العيد كان يقدم له «اليخنى» ليمتعه بأكل اللحم والبصل. وبينما هو يسوق الساقية وأبوه جالس عنده مر بهما أحد التجار فقال لأبيه: «لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلَّم وصار إنسانا» فأخذه وسلمه

إلى المدرسة. فلما أتم العلوم الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوربا لتعلم فن عينته له، فبعد أربع سنين ركب الوابور، وجاء عائدا إلى بلاده. فمن فرح أبيه حضر إلى الإسكندرية. ووقف برصيف الجمرك ينتظره، فلما خرج من الفلوكة، قرب أبوه ليحتضنه ويقبله، شأن الوالد المحب لولده، فدفعه فى صدره، وجرى بينهما هذا الحوار:

زعيط: سبحان الله! عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جدا.

معيط (أبوه): إمَّال يا بنى نسلم على بعض إزاى.

زعيط: قل بون أريفى (Bonne arrivée) وحط إيدك فى إيدى مرة واحدة، وخلاص!

معيط: لهو يا بنى أنا باقول منيش ريفى.

زعيط: موش ريفى يا شيخ أنتم يا أبناء العرب زى البهايم.

معيط: الله يسترك يا زعيط! والله جا خيرك. يا ابنى فوت روح فوت. فلما وصل به إلى الكفر (القرية) قامت أمه وعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ببصل، فلما رآه قال لها: ليه كترت من الـ.

معيكه (أمه): من ال إيه يا زعيط؟

زعيط: من البتاع اللى اسمه إيه.

معيكه: اسمه يا بنى الفلفل.

زعيط : نو ، نو ، ال ده ، ال بتاع اللى ينزرع .
معيكه : الغلة يا ابنى .
زعيط : نو ، نو ، ده اللى يبقى لو راس فى الأرض .
معيكه : والله يا ابنى ما فيه ريحة التوم .
زعيط : البتاع اللى يدمع العينين ، اسمه « أونيون » .
معيكه : والله يا ابنى ما فيه أونيون ، دا لحم ببصل .
زعيط : سى ، سا ، بصل بصل .
معيكه : ويا زعيط يا ابنى نسيت البصل ، وانت كان أكلك كله منه .

وهذه صورة بارعة لعبد الله نديم فى السخرية ممن يتعلمون ويسافرون إلى أوربا ويعودون فيبرأون من بلادهم وأسرهم وأوطانهم ، لأنهم أصبحوا عبيدا للغرب وكل ما هو غربى ، فلا يجلون ولا يحترمون إلا ما شاهدوه لدى القوم ، بينما يهزأون بكل ما هو شرقى ووطنى ناسين حقوق بلادهم وأهليهم .

ومن أمثلة نقده الاجتماعى ما كتبه تحت عنوان : **محتاج جاهل فى يد محتال طامع** ، وهو يجرى على هذا النمط :

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد أحد التجار الأجانب ، وطلب منه المبلغ ، فجرت بينهما هذه الحكاية بحضور أحد النبهاء :

الزارع : عاوز مائة جنيه بالفرط ( بالربح ) يا سيدى .

التاجر : فرط المائة عشرين كل سنة.

الزارع : اعمل اللى تعمله.

التاجر : شيل عشرين من مائة يبقى كام.

الزارع : لهو أنا كاتب، شوف يفضل كام.

التاجر : يبقى سبعين.

الزارع : يادوب كده.

التاجر : دى الوقت صار لى مائة جنيه ضم عليهم عشرين واكتب الكمبيالة.

الزارع : اكتب وخد الختم أهو.

وفى وسط السنة قدم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب من السمسم وعشرين من القمح وثلاثين من الفول وأربعين من الشعير، وجاء يحاسبه، فكانت الحكاية هكذا:

الزارع : طلع لى ورقة بالحساب ياسيدى.

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنيه، وقمح بعشرة جنيه وسمسم بثمانية جنيه وفول بعشرين جنيه وشعير بعشرة جنيه، يبقى الجميع كام؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المرة ما اعرفش الحساب.

التاجر : يبقى أربعين جنيه، شيلهم من مائة وعشرين يبقى الباقى كام؟

الزارع : مين يعرف؟ شىء كتير.

التاجر : الباقى تسعين جنيه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مائة وخمسة عشر طالب انت كام ؟ تلاتين ، يبقى مائة وستين ضم عليهم أربعين فرط ( ربح ) تبقى الكمبيالة تنكتب بمائتين وعشرة ونصف .

الزارع : هو ايه ؟ ! مش الأصل سبع عشرات وعشرتين ، وجالهم تلاتين وتلاتين ، شيل منهم تمن البتوعات اللى جبتهم يبقى لك دى الوقت مائتين وعشرة بس ، والنص جبته منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتى ، ليس من الأرباح .

الزارع : أيوه دى الوقت صحت الحسبة . السنة دى أبيع لك خمسين فدان فى عشرة جنيه يبقى لك أد إيه بعد كده ؟ يا جنيهين يا تلاتة ، خد لك بهم جاموسة ، وتبقى على رأى المثل : شيل ده على ده يستريح ده من ده .

وهذه الحكاية كسابقتها فيها مبالغة مسرفة ، ولكننا نحصل منها على صورة مقاربة كاريكاتورية أو مضحكة ، إذ كان النديم يعرف كيف يكبر العيب الخلقى أو الاجتماعى تكبيرا لا نلم به حتى يغلبنا الضحك لما عرض فيه العيب من استطالة وتشويه .

## الأســتاذ

أخرج عبد الله نديم هذه الصحيفة سنة ١٨٩٢ وقسمها بين

الفصحى والعامية، يكتب فيها المقالات السياسية، كما يكتب حوارا عاميا بين شخصين من الشعب أو أكثر يعرض فيه لجانب خلقى أو اجتماعى بالنقد يكسوه هذه الحلة الفكاهية التى مرن عليها فى التنكيت والتبكيت.

وفى كل جانب من الصحيفة نجده يعيب الانسياق الشديد نحو أوربا كما يعيب السقوط فى مهاوى الرذيلة. وعنى عناية خاصة بالدعوة ضد الخمر، وما تجره على صاحبها من ضياع دينه وماله. ومن طريف ما كتبه فيها «صورة عرضحال خامورجية بندر طنطا» وفيه يقول على لسانهم:

«إننا كنا أكثر الناس فى الليل جنودًا، ومعاملة ونقودا، كانت تأتينا السكارى من عمد، ومشايخ بلد، وأرباب الرواتب، وأصحاب النكت والغرائب، فيدخلون علينا من كل حَدب، بغاية الخضوع والأدب، فيجلسون حيث نأمرهم، ولا يتكدرون منا ولو ننهرهم، ويأكلون ويشربون، ولا يبالون: يربحون أو يخسرون. حتى إذا دبت الخمر فى رءوسهم، ولعبت بنفوسهم، قاموا يهتزون وهم السفهاء، ويرقصون ولا رقص عواهر النساء، فتارة نضع فى عنق الواحد منهم حبلا، ونسقيه من كؤوس السخرية ذلا، ونأمره ولا مائة مرة بالقيام والقعود، وهو يضحك ويلعب كأنه، ولا تشبيه، من بعض القرود، وتارة نصفعه على قفاه باليد أو بالنعال، وهو يقدم لنا واجب الشكر الصحيح على تلك الفعال.

ثم نفتح لهذا الخبيث، باب الحديث، فيحدثنا حتى عن أهل بيته، وحيه وميته، ويقر لنا بكل ذنوبه، وجميع عيوبه. وبعد الحديث والخلاعة، نسلب منه النقود والساعة، وربما نعطيه كمبيالات فيختمها أو يمضيها، وهو لا يدرى ما فيها. ثم نرميه خارج الباب، كأنه من بعض الكلاب، فيتمدد كالميت فى الرحبة، وربما كسرته عربة، وتارة يبيت فى الضبطية، ويغرم النقدية. ومع ذلك لا يهوله ما جرى فى الليلة الماضية، بل يبادر إلينا فى الليلة الآتية، وربما جر إلينا أصحابه، وخواصه وأحبابه، ونحن لا نعدّ ذلك منه جميلا، بل نسقيه معهم كأسا وبيلا. وكم لعبت الخمر بعقول، وأتت إلينا بفحول، نسقيهم السموم المقطعة للكبود، ونأخذ منهم معظم النقود. هذا ونحن نبعث المراسيل لاستحضار البراميل، حتى صار عند أقل عنتيل، زهاء ألف برميل».

وما يزال النديم يلقى نصائحه الخلقية والاجتماعية بمثل هذه الصور الفكهة، وكان بارعا فى تلمس العيوب والأخطاء وحَشْد جوانب التشويه فيها على قرائه وكأنما كان فى يده بوق فكاهى ينفخ فيه.

وكان اتخاذه للعامية سبيلا إلى أن ينشر فى مجلته كثيرا من الأزجال، تارة ينظمها بنفسه وتارة ينظمها بعض قرائه أو بعض الأدباء، ممن يعجبهم نقده وما يمسح عليه بالضحك الخفيف،

فيتابعونه فى طريقته، ويكتبون له أزجالا تحتوى على شئ من التهكم بمن يشذون على المجتمع فى عادة أو خلق، وينشر لهم أزجالهم كهذا الزجل الذى نشره لطالب أزهرى، يسخر فيه ممن يتعلمون اللغات الأجنبية ويتشدقون بها فى أحاديثهم، وهو يطَّرد فى هذا السياق :

الشمس طلعت صح النوم والساعة بالعربى عشره
والله عجب ياجِيل اليوم ياللى على سنجة عشره
حقا الزمن ده زمن عايب يصبح السيد مملوك
والندل دائمًا فيه غالب والحر ضاع جنب الصعلوك
« بونوسوار » صارت بالكوم أما السلام أجره على الله
وعمتك « جدنايت » اليوم سمى وخَفض باسم الله
الوقت ده وقت « البردون » وادى « البرول » لحقه فى كعبه
وخدلى بالك كلمة « جون » وابن الحرام حسبه ربه
صعبان علىّ جِيل اليوم خسر وأحواله تحسر
ولعدش ينفع كتر اللوم لكن نقول كله مقدر
تلقى الولد تم السبعه وع « الفرير » قبل الكتاب
وبعد ما يتم التسعه مقدرش اقولّك قلبه داب
سنة ف سنة يكبر دى الواد مع الشهادة السنويه
ومره عن مره يزداد ويمتحن فى البكالوريه
ويروح بها مطرح مايريد ودحنا عارفين آخرتها

ويدور ويفهم أنه السيد ... ما يفتكرش عاقبتها
تبص فى السكه تشوفه ... مسبسب القصة وعاوج
زى القمر وقت كسوفه ... أكمن جيبه صبح رايج
إن كان مرادك تنده له ... لابد ما تقوله « منشير »
وتشد حيلك وتقف له ... وتعظمه وتديه « سفنير »
ويسير مع اخوانه « ألمود » ... وادى الغرور تالف عقله
ويقول لنفسه أنا « فرجود » ... ومين هناك حد يسأله
متشوفشى منه غير وهام ... الا الشيطان فيه متعشم
ويعيش كده كل الأيام ... ويظن أنه متعلم

* * *

ياواد بقى فُضّك من دول ... والتفت شوف إيه بكره
والقلب صار منك معلول ... وانت مفيش عندك فكره
سايس أمورك بزياده ... يكفاك مساخر « لكسمبرج »
و« الألدورادو » صار عاده ... هو انت طار من عقلك برج
دوّر على نفسك تلقاك ... مفيش كده أبدا غفله
الصبح عندك زى مساك ... وكل شىء منك نفله
وفوق يا شيخ من دى السكره ... وانظر لحال مسقط راسك
وشد عن ساعد الفكره ... بكل قلبك وحواسك
تركت لغتك بالمره ... وقلت حالها مش ماشى
ورحت تجرى بلاد بره ... وقلت بلدى ممنهاشى

هى بلادك دى شويّه اللى الدول تتمناها
فيها العلوم مستوفيّه وبس فتش تلقاها
طاوع وتوب عن دى الدوره وانظر لمصلحة الأوطان
واترك لنا لعب الكوره حب الوطن ده من الإيمان

وبذلك كانت مجلة الأستاذ معرضا لروح النديم الفكهة وروح قرائه. ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا عيبا خلقيا ولا فسادا اجتماعيا إلا قطّروه تقطيرا هزليا فى أزجالهم ومقالاتهم وكل ما يكتبون.

### الأرغول

اختصت هده المجلة بالأزجال، وكان يخرجها شيخ الزجالين فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، ونقصد الشيخ محمد النجار، وهو من علماء الأزهر، وكان خفيف الروح خفة شديدة لا تقل عن خفة روح بيرم التونسى فى عصرنا. ويعد خير من أنجبته مصر حتى عصره فى هذا الفن، وكان له مجلس حافل فى مقهى « جراسمو » بجوار « متاتيا » يحضره كبار الزجالين فى أيامه من أمثال إمام العبد وخليل نظير وعزت صقر. وعلى يديه تخرج غير زجال.

ويغلب على أزجاله النقد الخلقى والاجتماعى، وهو صورة

مكبرة من عبد الله نديم ولكن فى شكل أزجال خالصة . ومن نقده الخلقى قوله فى شكوى الزمان :

أشكى لمين غدر الأيام ؟ وأروح لمين صاحب نخوه
وإن قلت يوم خطوه لقدام أرجع ورا ألفين خطوه

دور

أبص ألقى دا راكب حمار وعامل لى عمده
ودا محزق فى روحه قوى وهو حتة جلده
واللى يشوفو كان مردى مشى بقواسه وعده
واللى الفشل كاده اعوام صبح غنى وصاحب عزوه

وكانت عينه يقظة فقلما يفلت منه جانب من جوانب عصره يستحق السخرية أو التقريع أو الهزل والفكاهة إلا استغله فى زجله ، من ذلك ما كان من أول خروج النساء للطرق ، وسفورهن ، وكان ذلك يعد شذوذا فى عصره ، فسجله فى هذا الزجل :

دوّر يا جوز الدوّاره تلقاها سارحه فى الحاره

دور

جوزك ياخاله فى حاله اتبدّل قمحه بنخاله
مش عايز تبقى دلاله صنعه خلت عقله اتلخبط

دور

عايز تستنى فى بيته راضية له بقوله وبزيته

يــا مصيبتى دانــا ربيتــه　　على شانه بخرج واشحطط

دور

يا حرمه مش عاوز منك　　تتمسى ليله عن خُنُّــك
ميت مره يروح يسأل عنك　　لا ف سلقط بنتى ولا ملقط

دور

يوم تخرج من بيتها الحرمه　　تـركبها بخـروجها حـرمه
والراجل إن كان له حرمه　　يمنعهــا والبيت له أضبط

دور

الراجل إن كان فيه حنكه　　مــا يخليش لمراتــه خرجـه
لكن نسوان « آلافرانكه »　　دول بَشْقة ومين فيهم يشبط

دور

إن سمعت فى مرّه بمولد　　تندب لى وتعمل لى مولد
لـو كـانت حبله وبتـولـد　　تخرج فى يومها وتتخطّط

دور

تخــرج ومحنيـه ايــديهــا　　وتبــين سيقــان رجليهــا
وتحب الــراجـل بعنيهــا　　وان شافته تفرح وتقطقط

دور

أد انت على الحال دا راسى　　خليتها ليه تخرج يا« سى »
أنا بدى تفضل فوق راسى　　تحكم فى بيتهـا وتشـرط

وله زجل سماه زجل « المودة » تهكم فيه على من يتهافتون على البدعة مقلدين للأوربيين ناسين لدينهم وأخلاقهم وعاداتهم، وفيه يقول :

يا موضه يا جِيل الوِز  يا جِنِّيَّه من غير بِز
يا موضه جِيلك معروض  فات السنّه والمفروض
يبقى صغار لسه ومقروض  ويروح يسكر آل ويزّ

دور

يا موضه يا جِيل الوِزْ  يا جِنِّيَّه من غير بِز
الجامع يوم الجمعه  فاضى والخماره جامعه
والغيبه فى سهره وسمعه  تدبح فى الرقبه وتحز

دور

يا موضه يا جيل الوز  يا جِنِّيَّه من غير بز
تقليدك للغير ياخَيَّه  جاب رجلك بعدين فى الخَيَّه
وغرقت فى شِبْرين ميَّه  ووقعت فى دين بيحزّ

وعلى هذا النحو كان الشيخ النجار يُغَنّى فى أرغوله وأزجاله بنقد اجتماعى لاذع. وكان له مجلس حافل - كما أسلفنا - فى مقهى « جراسمو » بجوار حديقة الأزبكية، وقد تخرج على يده أكثر الزجالين الذين عاشوا فى النصف الأول من القرن العشرين.

## مجلات هزلية كثيرة

ونستقبل منذ أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن مجلات هزلية كثيرة مثل « حمارة منيتى » وهى مجلة سياسية فكاهية أخرجها محمد توفيق سنة ١٩٠٠ وكان ضابطا فى الجيش ومن رفقة الشيخ النجار ، فلما أحيل إلى المعاش أخرج هذه المجلة .

ونرى دائما على الصفحة الأولى تحت عنوانها هذين البيتين :

يامَحْلَى الجدّ لما يكون فى قالب هزار يبقى الكلام موزون ورايق
يغور الجدّ لو كنت انت غايب ياعم الشيخ هزار وأنت اللى فايق

ومنذ العدد الأول نجد محمد توفيق يعرض لعباس الثانى والشخصيات السياسية الكبرى بغمز لا يوارى فيه . وحدث أن سافر عباس إلى إنجلترا ليتقرب من المحتلين فلمزه لمزا كثيرا . من ذلك مقالة بعنوان : « رقوة بهايم وقلب هايم بس العزايم مالهاش وجود » . وتحت هذا العنوان كتب :

« يابركة عاشورا ، فوق وش الفطورا ، بالجوز وبالطورا ، ياعم يابو قورة ، سلّكْ لنا الماسورة ، للأمة تنسطل ، من قبل ما تنهطل ، ع الأخ العزيز ، اللى بيحسبنا معيز ، ويفوتنا فى مهاميز ، ويروح بلاد الإنجليز ، واحنا واكلين بهريز ، والواحد مش

واخد ، م الدنيا دى حاجة ، غير لطم الخواجة ، أسيادنا النظار ( الوزراء ) قايدين فيها راكية نار ، دايمًا ليل ونهار ، ياسند العواجز ، يامجوهر ياحمص ، خايف بطنى تمغص » .

ويكفى أن نقرأ لمحمد توفيق هذه العناوين لنعرف ماذا كانت تحوى مجلته : « الرحلة البلدية فى موتة مصر بلا دية » « سلموا للقط مفتاح الكرار » « ياما دَقَّت على الرأس طبول » « ياسعادة الحيوان وياشقاوة الإنسان فى حكومة هذا الزمان » « تبديد صاحب الرمة فى أموال الأمة » « كل واحد يأخذ دوره وجحا أولى بلحم ثوره » ويتحدث تحت العنوان الأخير عن أفراد الأسرة الخديوية وأنهم يتقاضون أكثر من ثلاثمائة ألف جنيه فى السنة ينفقونها فى ملاهى باريس ومجتمعات لوندرة وجبال سويسرا وأولى أن تنفق هذه الأموال فى تخفيف الضرائب عن كاهل المصريين ومساعدة فقرائهم وإصلاح البلاد . وفى وصف هذه الحمارة البارعة فى النقد السياسى يقول بعض قرائها المعجبين بها :

حماره ليست لمن يركب  تَضْرب بالنعل ولا تُضْرب
ترى بلادا باعها أهلها  وتسكب الدمع الذى يسكب

## مجلة خيال الظل

وأخرج أحمد حافظ عوض بجانب هذه الحمارة سنة ١٩٠٧ مجلة

خيال الظل ، وعُنى فيها بالتصوير الكاريكاتورى ، ولكنه يدنو درجات دون تصوير صنّوع فى « أبو نظارة » فليس فيه روحه ولا لذعه . وتقوم المجلة فى أكثرها على مهاجمة الحزب الوطنى ، وتشيع فيها النكتة والروح المرحة والعبارات والصور التى تخز وخز الأبر . من ذلك « حديث الاغتصاب بين حمار وحصان » . يقول الحمار : لو كانوا الحمارة يعتصبوا زَىّ العربجية كنا على الأقل نستريح كام يوم » ويرد الحصان : ياحسرة ! دول ما بيكملوش يوم .

ومن الصور اللاذعة صورة تمثل زفة تودع اللورد كرومر حين تركه للديار المصرية ونرى فى الزفة مصطفى فهمى رئيس الوزراء ، وتحت الصورة يقول مصطفى فهمى للورد كرومر : « فايتنا لمين ياسندى ! » وصورة أخرى يودع فيها مصطفى فهمى اللورد كرومر على القطار ويعزيه اللورد قائلا : « معلهش يابو درويش شد حيلك !

وواضح أن هذه الصحيفة مثل سابقتها كانت تغلب عليها العامية .

## مجلة السيف

وخرجت بعدها بقليل مجلة السيف لحسين على وأحمد عباس ، وتغلب عليها روح الصحيفة المعاصرة المسماة بالبعكوكة ، وتدور

فكاهاتها على القفش من مثل قالوا لصاحب جريدة مصر : « صحيح ما فيش فى رأسك ولا شعرة » قال : « لأ عندى شعرة » . ولما هجم العثمانيون على الإيطاليين فى حرب طرابلس كثرت الفكاهات فى هذا الصدد ، فمن ذلك : « عندما هجم الجيش العثمانى قال الطلاينة : « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله » ، ولما اشتدت الحرب وكثرت انتصارات إيطاليا وفتكها بإخواننا الطرابلسيين كتب هذا التعليق « تشكو مصلحة التلغرافات من تلغرافات روما لأنها بتخرّ دم » .

وكان فى السيف باب عنوانه « الدلع » كله قفش ، وباب آخر عنوانه « قولوا له » مثل :

قولوا لسنجر : « ماكينات ولاّ غزل البنات » .

قولوا للأسطول الطليانى : « تعاود تجى البر » .

قولوا للترموای : « مالك حايس ودايس »

وكمان قولوا له : « اطلع ياقاتل »

وكمان قولوا له : « اللى تعرف ديته اقتله » .

وكمان قولوا له : « ناس تنباس وناس تنداس » .

قولوا للأسطول الطليانى : « جك غرقة » .

وبجانب هذا الباب نجد بابا ثالثا بعنوان يصح ، ويتضمن الباب كثيرا من النقد الاجتماعى مثل :

يصح أنه يبقى صعيدى ولون الطحينة ويلبس برنيطة .

يصح أن الأفندى من دول يفتح قزايز بيرة فى قهاوى الرقص ولمبة بيته من غير قزازة .

يصح يبقى شامى عكاوى ويقول عندى رنديفو .

وقد عادت هذه المجلة بعد اختفائها باسم السيف والمسامير ، واستمرت فى هذا النقد السياسى والاجتماعى .

## مجلة الفكاهة

كان رواج المجلات الفكهة دافعا لأصحاب دار الهلال على إخراج مجلة الفكاهة سنة ١٩٢٦ ، وظلت تصدر نحو ثمانى سنوات حتى تحولت إلى مجلة الاثنين التى تجمع بين الجد والفكاهة ، ولقيت مجلة الفكاهة أيام صدورها رواجا منقطع النظير ، وكان يرأس تحريرها حسين شفيق المصرى محرر دائرة المعارف الوفدية فى الكشكول ، وكان مطبوعا على النادرة ولا يكاد يتحدث جادا . وقد ابتكر صورا مختلفة للفكاهة فى مجلته ، فمن ذلك أنه كان يعارض القصائد الجدية المشهورة فى القديم بقصائد هزلية حديثة من وزنها وقافيتها على نحو ما صنع فى معارضته لقصيدة أبى العتاهية المشهورة فى مديح هارون الرشيد والتى يستهلها بقوله :

ألا مـا لسيِّـدتى مـا لهـا
أدَلًّا فـأحمـل إدْلالهـا

وهو يمضى فى معارضته لها على هذا النحو الفكه :

أظـن « الـوِليَّـة » زعـلانـةً
ومـا كنت أقـصـد إزعـالها

أتى رمضـان فقالت هـاتوا لى
زكـيبـةَ نُـقْـلٍ فجِـبْنـا لهـا

ومن قمَـر الدين جِبْت ثلاث
لـفـائـفَ تُـنْـتْعـب شيَّـالها

وجبتُ صفيحـة سمـن وجبت
حـوائـج مـا غَيْرُهـا طـالها

فقل لى على إيـهِ بنت الذين
بتشـكى إلى أهـلهـا حـالها

تقـول لهم جوزى هـذا فقـير
كـأنى أضـعـت لهـا مـالها

ولا والنبى لا أخـاف أبـاهـا
ولا عـمهـا ، لا ، ولا خـالها

ولو كانوا ناسا من اللى فى بالى
لمـا سـمـعـوا قط أقـوالها

دى جـارتهـا زعَّلت زوجهـا
فجـاب العصـايـة وادَّى لهـا

وقد عميتْ بعد ما سابها
وشافت من الدنيا أهوالها
فإن عملتْ مثلها زوجتى
فإخْصُ عليها وعُقْبى لها
أتدرون ماذا أثار الخِناق
فزلزلت الأرض زلزالها
تريد الذهاب معى للتياترو
وتطلب منىَ إدخالها
وكيف أروح معاها التياترو
وإزاى أقْبَل إرسالها

ومن الشخصيات الفكهة التى ابتكرها شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود، وكان يكتب على لسانه محاضر تحقيق على نحو ما نعرف فى أقسام البوليس، ولكنه كان يخرجها فى هذه الصورة المرحة :

« وفى تاريخه أدناه وأعلاه أنا الشاويش شعلان عبد الموجود شاويش. آه يا نارى لو أكون بكشاويش. برضه أنا أحسن من بكشاويش وملاحظ كمان، وأنا جاعد فى الجسم حضر جدامى عسكرى بوليس طويل عريض، لو يجع على حيط يهزه. وبعد ماأخد لى التعظيم اللازم سعلته (سألته) خبرك آه؟ جال: «يا أفندم أنا أخش الحرب وأرمى روحى فى النار وفى البحر ولا أخافش

من مخلوج ولو كان الجن ، لكن أخاف من ربنا جوى ولا أجدرش على غضب ربنا . وحضرة بكشاويش النظام باعتنى فى النجطة اللى جُدَّام ديوان المالية ، والنجطة دى يا افندم واجف فيها راجل مسخوط على حجر عالى . والمسخوط ده لو ما ربنا غضبان عليه ما كانش سخطه . وأنا ماجادرش أجف حياله وغضب ربنا نازل عليه يا افندم واللعنة لما بتنزل بتعم والعوذ بالله . فأنا المذكور أدناه يا افندم أعرض لمسامع حضرة سعادة الحكومة أنها تشيلنى وتوديني نجطة غير دى ، شالله فى آخر الدنيا ، بس مايكونش فيها مسخوط ، وأنا يا افندم مصلى الخمس ، وأخاف من غضب الله » .

ومن الأبواب التى عقدها حسين شفيق فى المجلة باب محكمتنا العرفية ، وكان ينشر فيها محاكمات مضحكة على نحو ما نرى فى هذه المحاكمة لمدير شركةالترام :

رئيس المحكمة : اسمك ايه ؟

المدير : مدير الترماى

الرئيس : وصنعتك

المدير : بعيد عنك مدير الترماى .

الرئيس : عمرك كم سنة .

المدير : عشرة آلاف قتيل

الرئيس : أنت متهم بإهمال نشأ عنه حوادث دهس كثيرة

المدير : كله بالقضا والقدر

الرئيس : وايه القضا والقدر دول

المدير : يعنى العجلتين اللى فى أول القطار .

الرئيس : فيه شهود كتير بيقولوا إنهم شافوا الترماى بيدهس الناس

المدير : كدابين لو كانوا شافوه كان داسهم .

الرئيس : رجال الإسعاف بيقولوا إن السواقين بيمشوا بسرعة .

المدير : كدابين دول متغاظين عشان بنشغلهم طول النهار .

الرئيس : بتقول أنكم ما بتدهسوش حد ، أمال يتشغلوهم فى ايه »

المدير : بنشيِّلهم اللى بينداسوا من تلقاء أنفسهم .

الرئيس : تلقاء أنفسهم يعنى إيه ؟

المدير : يعنى الفرامل الخسرانة .

وباب آخر كان يعلق فيه على الحوادث التى تذكرها بعض الصحف اليومية هذا التعليق المضحك :

« ذكرت جريدة الأهرام أن ( وردية ) من عسكرى وخفيرين قابلتْ صيادا فى أثناء مرورها للمحافظة على الأمن ، فاغتصبت منه ما معه من السمك ثم قُبض على الدورية » ويعلق حسين شفيق على الخبر قائلا :

« عندما قبضوا على الدورية التى سرقت السمك ورأى المأمور العسكرى قال له :

– ارم بياضك !

يقول المحقق فى محضره إن الجندى الذى كان فى الدورية نصفه عسكرى ونصفه سمكة .

وقال أحدهم لوكيل النيابة : إذا كان البوليس يسرق فمن يحرسنا ؟

فقال له :

– اسم النبى حارسك

لما وصل العسكرى الذى سرق السمك إلى غرفة التحقيق وكيل النيابة شواه .

سألت النيابة العسكرى الذى سرق السمك عن اسمه فقال :

– بحرى بحرى .

عندما دعى العسكرى الذى سرق السمك إلى غرفة التحقيق دخل وعلى رقبته « شال » .

وكان فى الفكاهة باب عنوانه : « ما قولكم ؟ » وكان يُرَدُّ فيه على أسئلة القراء بتوقيع المفتى . فمن ذلك أن شخصا ذكر أنه أهدى فتاة خاتم الخطبة وبعد أن قبلته أعادته إليه ، وامتنعت عن مقابلته . فقال له فى إجابته : احمد ربنا .

وفقد بصره فى أواخر حياته ، فكان يرافقه أحد الشبان من

تلاميذه ، ولقيه بعض أصحابه ، فلما سأله عن الشاب أجاب :

– ده واحد ساحبنا !

ويمكن أن توجه كلمة ساحبنا على أنها صاحبنا . وكانت حياته كلها على هذه الشاكلة من التدير والفكاهة وما يرافقها من ضحك وهزل ودعابة . وإلى جانب هذه الأبواب الفكاهية فى مجلة الفكاهة كان بها بابان يكتبهما أيضا حسين شفيق المصرى أحدهما باب ( نظرات معتوه ) وهو نقد اجتماعى ، وثانيهما باب ( الشعر المنثور ) . وهو نقد أدبى فى قالب تهكمى بأسلوب بعض الأدباء المعاصرين الذين ابتدعوا ما سموه الشعر المنثور

## المجالس والمقاهى

كانت المجالس والمقاهى فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن تعد منتديات أدبية ، ولم يكن يخلو مجلس فى القاهرة أو مقهى من مضحك : أديب أو شاعر أو من أبناء الشعب الذين تجرى الفكاهة فى روحهم . وهناك كثيرون اشتهروا بها مثل حسين الترزى وحسن الملا والشيخ حسين زينهم ، وهى لا تزال تملأ ندواتنا ومجالسنا حتى دار الإذاعة نجدها تخصص لها بعض أركانها . ولابد أن نقف عند ثلاثة كان لهم فيها جولات ومواقف ونوادر يتناقلها المصريون ، وهم محمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ إبراهيم .

### محمد البابلى

كان البابلى سريع الخاطر بارع النكتة خفيف الروح ، وتروى

عنه فكاهات كثيرة، فمن ذلك أنه برم يوما بشخص فى أحد المجالس، فلما جاء شاب هو ابن هذا الذى برم به، أظهر البابلى الضجر منه، فسأله من معه لماذا تضجر من هذا الشاب؟ فقال: هو ابن اللى آم (اللئام). والتورية واضحة. وركبته الديون ورهن أرضه فى البنك العقارى، وتصادف أن غنى أمامه صالح عبد الحى أغنيته المشهورة: أهى السماح الملاح فين أراضيهم؟ فقال: فى البنك العقارى. والتورية فى أراضيهم على نحو ما فهمها البابلى واضحة. وركب مرة مع عبد العزيز البشرى قاربا فى النيل، فظهرت أمارات الخوف على البشرى حتى قال له: الحقنى يابابلى المركب ستغرق فالتفت إليه فى هدوء وقال له: ياأخى ما تغرق (لتغرق) هى بتاعتنا؟!. ويروى أنه كان مسافرا مع صديق، واعترضهما سلم فصعداه، وبينما هما نازلان رأى البابلى فتاة جميلة، فوقف، وناداه صديقه: اسرع يامحمد حتى لا يفوتنا القطار فقال: كيف أستطيع النزول وروحى طالعة. ورآه بعض أصدقائه فى رمضان نهارا وهو جالس على مقهى يدخن النارجيلة فقال له: لا يصح ولا يليق أن تُفْطر فى رمضان واسمك كاسم النبى: محمد، فقال على الفور: أنا يا أخى من حزب فاطر السموات والأرض. وهى مغالطة واضحة. ولما قامت الأحزاب بعد ثورة سنة ١٩١٩ وانقسم الناس إلى وفديين برياسة سعد زغلول ودستوريين برياسة عدلى سأله بعض أصدقائه قائلا: يامحمد انت سعدست ولّا (أو) عدلست؟ فقال: بل أنا

فلست . وأحيل موظف إلى المعاش فكان يكثر من التردد عليه ، وضجر منه ، فلم يكد يلم به يوما حتى قال له : قل لى ياأخى هم أحالوك على المعاش أم حالوك على ؟ !

## الشيخ عبد العزيز البشرى

كان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى الأديب المعروف لا يقل عن البابلى خفة روح ورشاقة نكتة ، وتروى عنه فكاهات ونوادر كثيرة . من ذلك أن رجلا من العوام استوقفه ليقرأ له خطابا فوجده طويلا ، فقال له إننى لا أعرف القراءة ، فتعجب العامى ، وقال له : كيف ذلك وأنت تلبس هذه العمامة الكبيرة ؟ فأمسك بعمامته ووضعها على رأس الرجل وقال له : اقرأ . ومن نوادره التى كان يقصها مبتسما على أصحابه أنه ركب يوما عربة ( حنطورا ) فسمع شخصا يقول : « ورا ياا سطى ، ورا ياا سطى » وضرب العربجى بسوطه المتسلق على العربة من خلف . والتفت الشيخ البشرى وراءه ، فوجد المتسلق هو حافظ إبراهيم ، أما الذى كان ينادى على العربجى ليضربه ، فهو إمام العبد !

واشتهر الشيخ البشرى بما كتبه فى مجلة السياسة الأسبوعية تحت عنوان : « فى المرآة » . وكان يختار تحت هذا العنوان شخصية كبيرة من شخصيات من عاصروه مثل سعد زغلول وعدلى يكن وزيور وعبد الخالق ثروت ويرسمها (سنتيز) رسما كاريكاتوريا ،

يتلوه الرسم القولى للبشرى.

وهنا نجد أثر الفكاهة الغربية فإن البشرى لم يكتف فى تصويره للأشخاص بتعقب هناتهم وسقطاتهم، بل ذهب يمثل نفسياتهم ومداخل طباعهم، يقول: «ولا يذهب عنك أن شأن الكاتب فى هذا الباب كشأن المصور الكاريكاتورى، فهو إنما يعمد إلى الموضع الناتىء فى خلال المرء، فيزيد فى وصفه ويبالغ فى تصويره بما يتهيأ له من فنون النكات». وقد جمع ما كتبه تحت هذا العنوان ونشره فى كتاب معروف. واستمع إليه مثلا يقول فى الدكتور محجوب ثابت، وكان سياسيا مشوشا، يكثر من الخطب السياسية والأحاديث عن السودان وعن نفسه ورحلاته فى أوربا وعلمه وأدبه، يقول فيه:

«لا شك أن الدكتور محجوب ثابت يُعَدّ، بحق، فى ميراثنا القومى ولو - لا أذن الله - جرى عليه القدر لكان لابد للأمة من (دكتور محجوب ثابت) بأية طريقة من الطرق. نعم هو فى ميراثنا القومى لا يقل عن آثار سقارة وجامع السلطان حسن ومقابر الخلفاء. ولقد أصبح على الزمان جزءا من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل ووفاء النيل وركبة الرؤية وشم النسيم! ولما فكر المرحوم محمود (بك) رشاد فى جعل العلم المصرى محلى بصور بعض الآثار القديمة، فرعونية وإسلامية، لم ير المصور بدا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبى السعود صورة الدكتور محجوب ثابت. والدكتور فى المصريين كإنجلترا فى الأمم،

كل منهما يرى عليه للآخرين تبعات لا تنقضى على وجه الأيام! فإذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يحتازه عن مصر خزان مكوار تولى الدكتور الكلام وملكه على جمهرة المهندسين. وإذا كانت الثورة (١٩١٩) تصدَّر الدكتور لجنة الوفد المركزية! وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظورتها (المرموق فيها) الدكتور، وكلما ساروا بضحية حريةٍ كان الدكتور أول المشيعين. فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان الدكتور فارسه المعلم. وإذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور إلا أن يتفرَّد بها من دون الناس جميعا، فانتفض نقيبا لعمال العنابر ولفافى السجاير وسواقى الأوتوموبيلات وشيالى المحطات ونُدل (خدم) الفنادق والقهوات وجميع طائفة المعمار وأصحاب الحوانيت من كل بدَّال وبقال وجزار وعمال المطابع وكناسى الشوارع وصناع الخيم ومسَّاحى (الجزم). ولو فكرت طوائف الجرذان والسنانير وجماعات الجُعْلان والصراصير فى أن تتخذ لها نقابات لمُثِّلَ الدكتور ثابت فيها خطيبا، ثم استوى لها بفضل الله نقيبا.

«وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولا عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد، وقائم وقاعد، وغاد ورائح، وسانح وبارح، ودارج على متن الغبراء، وطائر فى جو السماء. فإذا كانت هنالك منطقة خارجة عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط! ولا أحسب رجلا فى مصر ولا فى إنجلترا مشغولا بالسودان شغل

الدكتور ثابت ، فحديث السودان يجرى منه مجرى النفس . وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدا ، فإنه كان يرى أن كل العقدة فيها إنما هى فى إقناع المصريين وحدهم بقبوله ، فهو كلما رأى رجلا أو امرأة أو صبيا أو وليدا أقبل عليه يقنعه فى قوة وحماسة بقبول السودان ، ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأى أن المصريين غير مقتنعين بضرورة السودان ، فشخص إلى سوريا ليقنع أهلها بضرورة السودان للمصريين ! فقد بلغنى أن ذلك كان حديث الدكتور هنالك فى مسائه وصباحه ، وغدوه ورواحه ، وموضوع مفاكهاته وأسماره ، فى مقامه وتسياره .

« حقا هذا الرجل أمة وحده وإنه لعبقرى لا يتدلى إلى منطق الناس وأسباب تصورهم فإن له قياسه وتقديره ، وله منطقه وتفكيره ، وله أسلوبه وتدبيره . وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرا ولا قليلا ، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدره واقعا ، أمكن ذلك الأمر أو استحال ، ومثله من تخيل ثم خال . ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدا فى أن ينتظم عضوا فى الوفد المصرى ، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى ( باشا ) فكر فى تعيينه مستشارا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى إليه أن سعد ( باشا ) سيلحقه بالوفد المصرى ؛ فكان جوابه على الفور : « مافيش مانع ياسيدى » . وهكذا طمع الدكتور فى أن يكون عضوا فى الوفدين المتقاتلين معا ، سنة ١٩٢١ . وأذن الله ، ودخل

الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة أو رابعة بعدما عصفت القوة بجلّة رجاله سنة ١٩٢٢ ، ثم بدا له لأمر ما ان « يشلحه » فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها ، والدكتور مصمم على أنه ما برح عضوا فى الوفد يلتمس لعضويته المعاذير بأنه ربما دُعى للتوقيع فغاب ، أو أُرسل إليه فلم يبلغ الكتاب ! . والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح بعيد مدى العظام لولا أن فى جسمه رَهَـلا ( استرخاء ) ، أميل إلى الطول ، فإذا مشى خلته أحدب وما به حدبة ، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين ، عريض الجبهة إلا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يرسل سبَلته وعُثْنونه وشعر عارضيه فى هيئة لطيفة مقبولة ، وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى إلى إنسانها ، وهما دائمتا الحركة والاختلاج . وهو بعد طيب القلب ، مكفوف الأذى ، عذب الروح ، حلو الحديث ، ضحوك السن ، يتحرى فى قوله غريب اللغة ، ويلتمس الشاهد من مأثور شعر العرب ، وقد يجئ به أحيانا مكسورا غير متزن . أما قافاته فحدث عنها ولا حرج . جزت مرة بداره فرأيت فتاتين صغيرتين تتلاعبان ، فقالت إحداهما للأخرى : هذا بيت الدكتور ؟ فسألتها ومن الدكتور ؟ فقالت لها ألا تعرفين الدكتور الذى يقول : يابنت هاتى القبرة ( الإبرة ) ؟ !

« ومن أخص صفات الدكتور محجوب ثابت أنه لا يكاد يشعر

بمرور الزمن . وإذا كان من آية يوشع أن الشمس رجعت له مرة فإن من آية الدكتور عند نفسه أن الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان ، فأنت إذا دعوته ليتناول الغداء معك أقبل عليك فى الساعة الخامسة بعد الظهر حتما فى غير ورع ولا اعتذار ، ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الإفطار فى رمضان ، ولبثنا ننتظره برهة ، فلما أيسنا منه أفطرنا ، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمرا للفطور .

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه إذا آذنهم بالسفر إلى بور سعيد فى قطار الساعة السابعة صباحا شخصوا إلى المحطة لتوديعه فى قطار الساعة الحادية عشرة ، وإذا آذنهم بالسفر إلى الإسكندرية فى القطار المفتخر كانوا بوداعه الساعة السابعة مساء. وهو لا يتعمل للدرهم ولا يجرى وراءه ، أما إذا سقط الدرهم فى جيبه فلا إلى رُجْعى ، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار ، فإذا سقط فيها الفار فهيهات ، ليس له منها فرار . وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة وأفاكيه منشورة . وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمة وحده بما اجتمع له من الصفات ، وما احتشد لديه من فنون المعلومات وما تكدس عليه من ألوان التبعات . وإنى لأقترح على الحكومة أن تصدر قرارا بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة . ولعلها بعد العمر الطويل تجعله من نصيب دار

الآثار ، حتى يظل رمزا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار » .

وواضح أن الشيخ البشرى يستعين فى رسمه للدكتور محجوب ثابت بالمبالغة من جهة واستخدام المفارقات من جهة ثانية مع العناية ببيان النفسية والطبع والمزاج . وبلغ من ذلك كله الغاية فى رسم شخصياته المختلفة مع العناية التامة بلغته . وكان يكتب فى مجلات أخرى غير السياسة الأسبوعية مثل المصور والثقافة ، وكان يذيع على الناس أحاديث فى الإذاعة ، وكلها تطبعها هذه الروح الفكهة . وفى كتابه « قطوف » تحفٌ من ذلك كثيرة .

ومن يرجع الى هذا الكتاب « قطوف » وهو مطبوع فى جزئين ، يبصر الى أى حد كان البشرى كاتبا فكها . فقد كان يعرف كيف يستخرج الفكاهة من كل إنسان ومن كل جانب من جوانب حياتنا المصرية التى شاهدها تحت بصره .

وقد عمد كثيرا إلى الموازنة بين ما كنا عليه فى أواخر القرن الماضى وما صرنا إليه فى هذا القرن ، من عادات قديمة أو مستحدثة ، ولا تقرأ ذلك عنده حتى تبتسم وقد تضحك ، إذ كان يعرف بأسلوبه فى المزاح كيف يعرض الحق الصريح ، فإذا هو مشحون بالسخرية والفكاهة . ومن طرائفه فى ذلك فصل كتبه بعنوان « كيف كان الشباب يزوَّجون » .

وكان يعرف كيف يعرض حاضرنا عرضا فكها أيضًا، وخاصة ما اتصل منه باستخدامنا لبعض آلات المدنية الحديثة ووسائلها، حتى لتتحول إلى ما يشبه فرجة أو تسلية أو عذابا وبلاء. واقرأ ما يقوله من فصل عن التليفون :

« التليفون، عصمك الله من كل مكروه، كما تعرف أداة سريعة للتخاطب سواء فى قضاء الحوائج أو فى دفع الكوارث أو فى الاستنجاد فى الأحداث أو نحو ذلك. على أن الكثيرين منا نحن المصريين والسيدات على وجه خاص لا يفرضون له ذلك البتة، بل إن بعضهم وبعضهن ينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية كالعود والقانون، والبيان كما دعاه المجمع اللغوى، والكمان مثلا. فإذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير صديق جعل يتحدث ويتحدث مايكلّ ولا يملّ ولا يتعب ولا ينصب، ولا تقفه شهقة، ولا يختلج له فك، ولا ينقطع له نَفسٌ، بل لعله فى لذته واستمتاعه أمرح من مستمع إلى عود حاذق أو قانون ضارب محسن. ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام، وما بلغت الدار قط إلا عدلت من فورها إلى التليفون، فتكلمت، ثم تكلمت، حتى إذا أذن الله للكلام بختام رفعت السماعة ثانيا وافتتحت مع آخرين حديثا آخر، وهكذا حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة قامت فجلست إلى صحبات الدار، وما أن تفرغ من شرب القهوة بعد

السلام وبث الأشواق وما إلى ذلك حتى تهرع إلى التليفون أيضًا، فتعيد ما بدأت وتستأنف من الأحاديث ما قطعت، وهكذا. قال صاحبى : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم وأنا جالس فى غرفة قريبة من آلة التليفون بحيث أسمع برغمى الحديث فى يسر، فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس، ورحت أعد « النمر » التى تطلبها، فإذا هى ست عشرة قد استهلكت جملة الأحاديث فيها ما يقرب من الساعتين،وإنى أستطيع مطمئنا على دينى وضميرى أن أحلف لك بكل ما يحلف به البار والفاجر على أنه ما سقطت إلى أذنى من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة أو تبعثها حاجة أو تنفع فى أى شىء أو تضر فى أى شىء أو يترتب عليها فى يوم من الأيام أى شىء.

« وحدثنى صديق من الظرفاء قال : كنت جالسا فى مقهى ( كذا ) وكان ذلك فى شهر يولية . وكان اليوم شديد الحر، وبدا لى أن أتحدث فى التليفون إلى صديق فى شأن عاجل، فإذا مقصورة التليفون مشغولة برجل يتحدث جاهدا ويهز رأسه هزا عنيفا، كأنما يوقع به على نَبرْ الكلام أو يمسك « الواحدة » على حد تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلا لعله ينتهى، فلم ينته. فعدت إلى مجلسى حتى مضتْ نصف ساعة أيضا، ثم نهضتُ، فنقرت له على الزجاج، أتعجله، فالتفت إلىَّ، وإن كان فمه لم يلتفت، وجمع أطراف أنامله وأشار إلى بالتمهل، فأمهلته، حتى سمعته يحيى

صاحبه تحية الختام، ثم أفزعنى أنه استأنف الحديث فقال لصاحبه : « إلاَّ قل لى ». ويمتد الحديث شوطا آخر، فإذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلا، فتنفست الصعداء كما يقولون، عاد فقال : « لكن ماقلتليش على كذا ». وهكذا، حتى كدت أخرج من جلدى. ولم يغظنى أكثر من أن أسمعه يقول فى وداعه لمحادثه : « بكره إن شاء الله نتقابل فى محى كذا » فاقتحمت عليه المقصورة وقلت له : « يا أخى لقد سرقك الكلام فقد صرنا بعد بكره »

« ولا تظن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الإطالة التليفونية قد تجر أحيانا إلى أخطار، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار، فلقد يطلبك قريب أو صديق أو أى إنسان بينك وبينه عمل، ليحدثك فى أمر عاجل، فلا يصل إليك، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة، وتضيع المنفعة، وتقع المضرة. ولقد يدق جرس التليفون فى الصباح الباكر وأهل الدار نياء فى السادسة إذا كان الوقت شتاء، وفى الخامسة إذا كان صيفا، فيهبون مذعورين، وقد وجفت قلوبهم وزاغت أبصارهم وتلاحقت أنفاسهم، لأن التليفون فى مثل هذه الساعة لا يمكن أن يفضى بخير، بل قلَّ أن يفضى فيها إلا بالشر الكبير، والعياذ بالله. ويتقدم أشجع أهل الدار ويتناول السماعة بيد مرتعشة ويقف سائرهم وقفة منتظرى الحكم فى الجنايات الخطيرة. ثم إذا هم يسمعون : « لا، النمرة غلط ». فينصرف كل منهم إلى سريره

أو إلى بعض شأنه، ما يتكلمون، فقد عقد الذعر ألسنتهم فما يقوى أحد منهم على الكلام .وكل ذلك لأن البارد السمج الذى يطلب التليفون فى هذا الوقت لا يجشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء. ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :

- إنت سى عطوة
- لا
- إمَّال إنت مين
- أنا مش سى عطوة وبس
- طيب ما تقول إنت مين
- يا أخى ! أنا لست سى عطوة الذى تطلبه وكفى
- ده مش محل فلان ؟ ( ويعين متجرا أو مصنعا )
- لا ياسيدى ! هذا منزل
- منزل مين
- منزل لا شأن لك به ياسيدى
- أما شىء بارد، أما ابن ... صحيح ! ويسرع إلى قطع الحديث . والحمد لله .

« ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان، فإذا سألته اسمه أبى أن يجيبك، أو تبدأ أنت أولا بالجواب عما سأل. وتراجعه فى هذا ، فيلح ويأبى ، والعـــرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو

أولا ، ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه . ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فإذا سأله الخادم عن اسمه كان جوابه :

« بس قل له واحد عايزك » ولا يأذن باسمه أبدا .

ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك وقد تكون مشغولا جدا ، فإذا استوثق من شخصك بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن منها أو مثلها . ثم يكررها على ألوان وصور شتى . ولا يسعك إلا أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم لا يلبث أن يفاجئك بهذا . السؤال :

– طيب أنا مين .

– ياسيدى ! قل لى حضرتك مين .

– بقى مش عارف أنا مين .

– بماذا تأمر ياسيدى .

– لازم تقول لى أولا أنا مين .

– لعل خللا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل معروف وقل لى مين أنت ؟

– طيب افتكر كده .

« ولا يزال يلون لك هذا العذاب أو تخبره من هو ، أو بعبارة أخرى . لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصيته ، وتعرفه نفسه . وكيفما كان الحال فقد ضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك . وهكذا يكون التظرف وكذلك يكون الظرفاء . وبعد فإذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئا فإنى أسأله

أن يعلمنا كيف نلتزم فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام، وما ذلك على الله بعزيز »

والشيخ عبد العزيز البشرى فى هذه الصورة القلمية لآلة التيلفون ومضايقاتها مصور ماهر ، يعرف كيف يصوب فكاهته وسخريته إلى نقط الضعف فى عاداتنا، فإذا هى تبرز بروزها فى الصور الكاريكاتورية . والطريف أنه يسوق إليك ذلك فى أسلوب يختلط فيه الجد بالمزاح واللذع . ومن هنا تأتى المفارقة التى تثير فيك السخرية . ولم يكن ينقصه شىء كى يحسن هذا الأسلوب الفكه ، فقد كان فطنا حاضر البديهة سريع الجواب ، وكانت فيه دقة حس شديدة ، فلا يلم بشىء إلا استقصاه من أطرافه ، واستخرج منه فكاهاته .

ولا يكتفى البشرى فى كتاباته بما يروى من نوادره ، فقد يروى نوادر عن غيره تفكهة لقارئه كهذه النادرة التى رواها عن صديقه حافظ إبراهيم :

« قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور ( الكبارى ) كان الناس يتخذون الفلك ( المعدية ) فى طلبهم الشاطئ من الشاطئ . وجاء رجل من القاهرة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ، وكان الليل قد تقدم . فوجد ملاحين يغطان فى نوم ثقيل من تعب الليل وكدّ النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما ، ونهض أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثانى الدفة . وأنشأ صاحب

المجاذيف يضرب بمجذافيه سطح الماء. على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثا حتى أحس شدة جفاف الحلق من أثر العطش، فتناول الكوز، ولم يكن يعرف أن زميله كان قد أذاب فيه ملحا ليعالج به أذنه، واغترف به من النهر غرفة، وشرب من الماء، فإذا هو ملح أجاج، فصاح من فوره بزميله صاحب الدفة، وكأنه لا يزال نائما يحلم :

- يا ريس عويس!

- هو !

- إيدك .. دخلنا المالح »

والحق أن البشرى كان يحسن صناعة الفكاهة قولا وكتابة غاية الإحسان، من كل شكل ومن كل لون لذعا ومزاحا ودعابة.

## حافظ إبراهيم

ربما كان حافظ أهم من عاصروا الشيخ البشرى سرعة خاطر وحضور بديهة، يُرْوى عنه أنه كان يلبس بدلة لا يغيرها فقال له أحد أصدقائه لماذا لا تغير هذه البدلة، فأجاب على الفور لأن فيها صفتين عزيزتين : القدم والوحدانية، يريد أنه لا يملك سواها. ودُعى على مائدة بعض الأثرياء مع صاحبه البشرى وكان الطعام سمكا، فلاحظ أن البشرى يأكل وليس أمامه شوك متبق مما يأكله، وكانت الفاكهة عنبا بناتيًّا، فتعجب حافظ، وسأله : أتبلع

الشوك أو أن أمامك سمكا بناتيا لا شوك فيه ؟ . ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة فى الجانب الأيمن ، وحدث أن جانبه الأيسر آلمه بعد زيارته ، فتمارض وظن أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له بعض أصدقائه إن المصران لا يكون فى الجانب الأيمن ، فقال له : ربما يكون أعور شمال يا أخى !

وكان صديقا لإمام العبد الشاعر السودانى ، وكانت فى إمام دعابة ، فمن ذلك أنه تأخر فى إحدى سهراته ، وكان بيته بعيدا فنادى على عربجى ليوصله ، وركب ، وحينما قرب من المنزل أخرج رأسه وقال ( للعربجى ) قف ، سيدى نزل . وكان يتيه على حافظ مع كثرة ما يستولى عليه من نقوده ، وكان يقول لأصدقائه : لولاى ما عرف حافظا أحد ، فأنا الذى خلقته ، وبلغ ذلك حافظا ، فأسرَّها فى نفسه حتى دنا منه يوما وسأله بعض النقود ، فقال له : أنا يامولاى كما خلقتنى . وتصادف أن غاب إمام عن مجالسه ، فذهب يزوره ، ثم رجع يقول لأصدقائه إن بيت إمام ضيق جدا ، وقد سمعت أن خفير الدرك يشكو كل ليلة من أنه حين يمر بمنزله يتوقف عن المرور وينادى : يا إمام رجليك طالعة من الشباك ، يا أخى مش ضرورى تنام متمدد . وذهبا مرة للاصطياف معا فى الإسكندرية ونزل إمام العبد البحر فلما خرج منه قال له حافظ : أهو أنت الآن سودانى ومملح . ولبس إمام يوما رباطا للرقبة أسود فلما رآه حافظ

قال له : زرّر القميص . وكان إمام يكتب ذات يوم فوقعت نقطة حبر أسود على الورقة التى يكتب فيها وهو غير ملتفت ، فقال له حافظ : نشِّفْ عرقك . وكانا يسيران فى بعض الأيام واتفق أن مرًّا أمام منزل أنيق ورأى حافظ بابه يفتح ، وخرجت منه سيدة جميلة ، فوقف ينظر إليها وفجأة قبَّل إمام العبد ، فسأله ما هذا يا حافظ ؟ فقال له : أقبِّل الأرض بين يديها ، وأشار إلى السيدة .

ولم تكن فى حافظ هذه النكتة البارعة فحسب ، بل كان معها حلو المعشر فكه الحديث ، يعرف كيف يروى النوادر والأخبار ، فكان كبار المصريين يتلقفونه فى مجالسهم ، وممن كان يعجب به وبحديثه إعجابا شديدا سعد زغلول زعيم الأمه ، وكان يدعوه لزيارته فى مصطافه بمسجد وصيف كما كان يدعو أعجوبة العصر محجوب ثابت فكانا يتراشقان بالنوادر .

ومن طريف ما يروى أن « الدكتور محجوب » كان مع حافظ ابراهيم وبعض صحبه فى ضيافة سعد زغلول فى مسجد وصيف ، وذات يوم أصبح الدكتور محجوب يروى لهم حلما رآه فى النوم ، فسأله سعد عن الحلم ، فقال رأيتنى راكبا جملا كبيرا ، ومن خلفه عدد كبير من الحمير ثم جاءنى رجل ومعه رسالة من كبير ، فسلمنى إياها . فنظر سعد إلى حافظ وقال له : « فسِّرْ لنا هذا الحلم ياحافظ » فقال : أما الجمل الذى يركبه الدكتور محجوب فهو كرسى النيابة ، وأما الرسالة ، فهى تكليف من أولى الأمر لمحجوب

بتولى وزارة الصحة ، وكان الدكتور محجوب يمنى نفسه بهذه الوزارة . ثم قال حافظ : « أما الحمير فهم هؤلاء الذين انتخبوه فى مجلس النواب » !

وقد نظم حافظ فى وصف محجوب ثابت قصيدة فكهة طويلة ، وهى مثبتة فى ديوانه وفيها يقول مشيرا إلى هذا الحلم وماعُرف به فى كلامه من تمسكه بالقاف ، يلوكها لوكا ، وكثرة حديثه عن السودان وغير السودان :

يُرْغى ويُزْبد بالقافات تحسبها ... قصفَ المدافع فى أفْق البساتين
من كل قافٍ كأن الله صوَّرها ... من مارج النارِ تصويرَ الشياطين
قد خصَّه الله بالقافات يَعْلكها ... واختص سبحانه بالكاف والنون
يغيب عنه الحِجا حينا ويحضُره ... حينا فيخلط مختلًا بموزون
لا يأمن السامعُ المسكين وَثْبته ... من (كردفان) إلى أعلى فلسطين
بيناتراه ينادى الناس فى (حَلبٍ) ... إذا به يتحدَّى القوم فى الصِّين
ولم يكن ذاك عن طيشٍ ولا خَبلٍ ... لكنها عبقرياتُ الأساطين
يبيت ينسج أحلاما مذهبة ... تغنى تفاسيرُها عن ابن سِيرين
طورا وزيرا مشاعا فى وزارته ... يصرِّف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عُطْبولٍ خَدَلَّجة ... حسناء تملك آلاف الفدادين
يُعْفىَ من المهر إكراما للحيته ... وما أظلَّتْهُ من دنيا ومن دين

وكان محجوب ثابت يمنى نفسه الى جانب وزارة الصحة بزواج فتاة جميلة أو عطبول خدلجة كما قال حافظ ويطلب أن تكون ثرية

وفى ديوان حافظ فكاهات ومداعبات مع البابلى وغيره من أصدقائه . ويروى أنه رأى رجلا بطينا عظيم الكرش فقال له مداعبا : ما أراك إلا ممن يطلبون المساواة بين المرأة والرجل ، فأجابه نعم ، فقال حافظ : ظاهر لقد حملت عنها حملها ، وتلك غاية ما بعدها غاية فى المطالبة بالمساواة بين المرأة والرجل أو بين الجنسين . ومر يوما على رجل يبيع مراوح ، فسأله عن ثمنها فقدم له مروحة ، وقال له : هذه بقرش واحد ، ثم قدم له أخرى مثلها وقال له : وتلك بقرشين ، ونظر حافظ فى المروحتين وقلّبهما ، ولم يجد فرقاً بينهما ، فقال له : أهذه تأتى بهواء بحرى والأخرى تأتى بهواء قبلى ؟!.

ودعا جماعة من أصحابه إلى طعام ، وجاءوا معهم بصديق لهم لم يكن يعرفه ، ولاحظ حافظ أنه يكثر من الأكل ، فقال له : ترى ماذا كان يكون أمرك لو كنت حقا من المدعوين ، هلا ذكرت أنك مدعو من باطن مدعو ، ثم قال له : يا أخى إنك تشبه الخزانة التى بها درج سرى !. ودُعى مع جماعة على طعام ، وكان على المائدة ديك رومى صغير لم يعجب حافظا ، فقال للمضيف : ما أظن هذا الديك إلا دجاجة نفختها بمنفاخ دراجة ، ثم قدمته لنا على أنه ديك رومى . وكتب الدكتور هيكل مقالا عنه وعن شوقى بعنوان شوقى وحافظ ، وبلغه أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، وكان

يرى نفسه فوقه فى الشعر ، فقال لماذا يغضب ؟ أما سمع الناس يقولون : « زفتى وميت غمر » فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ وهم أيضا يقولون : « سميط وجبنة » و « خيار وفاقوس » و « عسل وبصل » . وكان لا يلبث أن يعقب على ذلك بقوله ضاحكا : « أما من يكون العسل ومن يكون البصل فهذه مسألة أخرى »

## شوقى ومحجوب ثابت

لم يكن شوقى مشهورا بالدعابة أو النكتة على نحو ما كان حافظ إبراهيم معاصره ، ومع ذلك ففى ديوانه بعض دعابات لعل أطرفها ما ساقه مداعبا به محجوب ثابت . وكان شخصية فذة كما مر بنا فى وصف البشرى وحافظ له ، ومعروف أنه كان من خطباء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وعُرف بحصان كان يركبه فى غدوِّه ورواحه ، وأطلق بعض أصدقائه على هذا الحصان اسم « مكسوينى » وهو اسم بطل أيرلندى انتحر جوعا ، يكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه . واستبدل محجوب ثابت بالحصان سيارة فقال شوقى مداعبا لمحجوب :

لكم فى الخطِّ سياره حديثُ الجار والجاره
إذا حرَّكتَها مالتْ على الجنبين مُنْهاره
وقد تَحْرُن أحيانا وتمشى وحدها تاره

ولا تُشْبعها عينٌ من (البنزين) فوّاره
ولا تَرْوَى من الزيت وإن عامتْ به الفاره
ترى الشارع فى دُعْرٍ إذا لاحتْ من الحاره
وصِبْيانا يضجّون كما يلقون طياره
وفى مَقْدمها بوقٌ وفى المُؤْخر زماره
وقد تمشى متى شاءت وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوّا ق أن يجعلها داره

* * *

أدنيا الخيل يا ( مَكْسى ) كدنيا الناس غدَّاره
فصبرا يافتى الخيل فنفس الحر صبَّاره
أحقٌّ أن ( محجوبا ) سلا عنك بفَخَّاره
ولم يعرف لك الفضل ولا قدَّر آثاره
ولا والله ماكلّفـ ـت ( محجوبا ) ولا ( باره )
فلا البرسيم تَدْريه ولا تعرف نُوّاره

وهى قصيدة طويلة كلها على هذا النحو من الدعابة ، ومن طريف ما داعبه به وصفه لبراغيث عيادته على هذا النحو :

براغيث ( محجوبَ ) لم أنسها ولم أنس ما طَعِمَتْ من دمى
تشقّ خراطيمُها جَوْربى وتنفذ فى اللحم والأعظم
ترحّب بالضيف فوق الطريقِ فباب العيادة والسلّم

قد انتثرتْ جوقةً جـوقة كما رُشَّت الأرض بالسمسم
وتبصرها حول (بيبا) الرئيسِ وفى شاربيه وحـول الفم
وبـين حفـائـرِ أسـنـانـه مع السُّوس فى طلب المطعم

ولشوقى دعابة كتبها على لسان الدكتور محجوب ، يعلن فيها غضبه على سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول وكان يكثر من هجائه والتندير عليه وعلى حصانه وحتى بعد موته . وكان شوقى يحاول أحيانا الصلح بينهما إذا التقيا فى مجلسه ، فيأبى محجوب قائلا : « يشتمنى فى زفة ويصالحنى فى عطفة » . فنظم شوقى هذه الدعابة على لسان محجوب ، وفيها يقول :

يمينـا بالـطَّلاق وبـالعِتـاقِ وبـالدنيـا المعلقمة المـذاقِ
وكلِّ فَقارةٍ من ظهر (مكسى) بصحراء الإمام وعظم ساق
وتربتهِ وكـلِّ الخير فيهـا ونسبتـه الشريفـة للبُـراق
وبالخطب الطوال وما حَوتْه وإن لم يبق فى الأذهان باق
وكَسْرى الشعرَ إن أنشدت شعرا ونطقى القافَ واسعـة النطاق
أيشتمنى سليمان بنُ فوزى و(بيبى) فى يدى ومعى (طباقى)
وتحت يدى من العمال جمعٌ يشمرٌ ذيله عند التـلاقى
ولسنا فى البيان إذا جرينا لأبعد غايةٍ فَرَسَىْ سباق
تُقاقى ذقنه من غير بَيْضٍ ولى ذقنٌ تبيض ولا تقاقى
وتحلاق اللِّحَى ما كان رأيى ولا قصُّ الشوارب من خَلاقى

ألا طزٌّ على العَيْهـور طز		وأن أبدى مجاملة الرفاق
بقارعة الطريق ينال منى		ويوسعنى عناقا فى الزُّقاق
وليس من الغريب سوادُ حظى		وبالسودان قد طال التصاقى
ألم ير أننى أعرضت عنه		وصار لغير طلعته اشتياقى
وسبحان المفرِّق : حظ قومٍ		قنــاطيرٌ وأقــوامٍ أواقى
وعيشٌ كالزواج على غرام		وعيشٌ مثل كارثة الطلاق

**القاهرة وأبناء البلد**

هذه الروح الفكهة نجد آثارها على لسان جميع المصريين فى مجتمعاتهم ونواديهم ومقاهيهم ، ولمن يشتهر بها بينهم مقام ملحوظ ، وقد وصف قاسم أمين أحدهم . فقال :

« رجل خفيف ولطيف ، لا تغيب البشاشة عن وجهه ، ولم يره أحد قط غير مبتسم ، إذا قال لك نهارك سعيد ضحك ، وإذا أخبرته أن الهواء طيب ضحك ، وإذا سمع أن زيدا مات ضحك ، زينة المجالس وأنيس النوادى ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ، ومنوطا بنشر التفريح حوله . يستخدم كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه ، فيجد فى أهم الحوادث موضوعا للتنكيت وفى أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال فلابد أن يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس » .

وهذه الروح أكثر ما تشيع فى أهل القاهرة ، فهى أكثر مدن مصر ميلا للضحك والتندير ، وكثيرا ما يطلقون على من يشتهر بذلك فيهم « ابن بلد » يعنون بذلك رقته وحسن ذوقه ومعرفته لمناحى الكلام وما يطوى فى ذلك من ظرف ولباقة .

ولأبناء البلد هؤلاء طرق مختلفة فى التنكيت ، ومن أشهرها القافية ، إذ يدعى اثنان للمبارزة الفكهة فى موضوع بعينه ، ويبدأ أولهما فيذكر شيئا ، ويقول الثانى : إشمعنا « إيش معنى ؟ » أى لماذا فيجيبه الآخر إجابة مسكتة ضاحكة .

وهناك ضرب آخر من النكت يقوم على « القفش » إذ يعلقون على أى موضوع بالنكتة . وتستغل هذا المعين صحافتنا الحاضرة ، كالنكت عن ثرى الحرب والجيل الحديث والتسعيرة والحماة والزوج والزوجة وبنت الذوات ورفيعة هانم . وليست هناك حادثة تمر دون أن تستخرج منها النكتة ، وكأن الصحافة المصرية تستمد فى ذلك كله من نبع لا ينضب ، وهى تضيف إليه صورها الكاريكاتورية على نحو ما نقرأ فى الأخبار والأهرام والمصور .

## فى الأزجـــال

وقد شاعت الأزجال فى عصرنا الحديث ، وكان طبيعيا أن تعمها روح الفكاهة لأنها تكتب بلغة الشعب وتعبر عن حياته تعبيرا ليس فيه تكلف ، ومر بنا بعض أزجال للشيخ محمد النجار وفيها نقد

فكه ، فيه شيء من المرارة ، لبعض جوانب حياتنا . وخلفه كثير من الزجالين ساروا فى نفس الدرب الذى سلكه ، ومن أشهرهم الشيخ عبد الله لهلبها والشيخ أحمد القوصى وعزت صقر والشيخ يونس القاضى وحسين الحلبى وحسين مظلوم ومحمود رمزى نظيم ، وبديع خيرى وله تمثيليات فكهة مثّلها نجيب الريحانى ، ونسوق قطعة من زجل طريف له ، ينتقد فيه طمع الآباء إذ يزوجون فتياتهم من الطاعنين فى السن ، لثرائهم ، حتى لو كانوا من الريف ، يقول :

هناك فى شارع مراسينه نصبوا الزينه
ليلة جواز ستّ أمينه
بالشيخ منوفى أبو خلاف

وأمينه كانت تلميذه لده وجيزه
حبوبة رؤيتها لذيذه
دمها ما تقولش خشاف

والشيخ منوفى بلغ تمانين من عمره الطين
لكن بقا حواليه فدادين
وبيت فى عطفة أم لحاف

والقرش فى الدنيا صياد غياظ كيّاد
يصبّح الخدام أسياد
ويشقلب الحال خلف خلاف

أبـــو أمينـــه لقى لقيَّـــه     لُقْطـه غنيَّـــه
صـــرف النـظر بـــالكليـه
عن صدغ يشبه صدغ الثور

وعينين مدغششـه طلمسها     كتـــر عماصـــها
وأسنان صناعى مـرصَّصها
حكيم غشيم فى حنك مهجور

فاكر أبوها كمـان سنتين     سى عريسِ البين
يتـوفى ويسيب القـرشـــينَ
يـورثهم الصهر الـطرطور

ماخطرشى الاهبل على باله     قـول أمثـــاله
يـا واخـد القـرد لمـالـه
المال مزعزع مش مضمون
تلقـــاه مـادام تستنـــالـــه     الفنـا جـــاله
والقرد فاضل على حـــاله
ما ينوبك إلا السحنه الدون

واهو الجواز عنـدنا بلوه     بيـــعه وشـروه
هم البنات دول أبو فروة
والّا بضـايـع بـــالنـولـــون

## بيرم التونسى

ولا نبالغ إذا قلنا أن بيرم التونسى كان أبرع الزجالين المعاصرين وأكثرهم حبا وقربا من القراء وكان لا يبارى فى الوقوع على المآخذ والعيوب الاجتماعية مع التصوير الفكه والروح العذبة والإتيان بالكلمة الساخرة والأخرى المضحكة. ومن أزجاله المشهورة زجله فى العيون وأصنافها :

من العيون ياسلام سلِّمْ شوف واتعلِّمْ
تحت البراقع تتكلم والدنيا نهار

* *

عيون تقول لك قصدك إيه بتبحلق ليه
ما لكش شغل تعسّ عليه ياراجل ياحمار

* *

وعيون تقول لك أنا عارفاك والنبى ما انساك
من يوم ما شوفتك م الشباك ياجدع ياصغار

* *

وعيون تقول لك روح يارذيل يابو دم تقيل
يا باى ! كبه فى المخاليل ياما هم كتار

* *

وعيون تقو لك أنا حبيت ياللابنا عَ البيت
وعيون تقول ان شالله ما جيت أنا رايحه الزار

* *

وعيون تقول لك بالمحسوس أنا عايزه فلوس
وان شالله حتى تحوس وتدوس أنا عاملاه كار

* *

وعيون تقول لك امشى ياواد أنا أم أوْلاد
وعيون تقول لك عندى معاد ويَّا السمسار

* *

وعيون بسرِّ الحب تبوح كدا بالمفتوح
وتعرف القلب المجروح ما عليهش ستار

* *

وعيون تسبل فوق الخد دى جد ف جد
وعمرها ما تكلم حد عيون أحرار

* *

وعيون تحقق فيها بشوق تهرب على فوق
بتقول لك ابعد عنى بذوق نظرات نار

* *

وعيون ما تعرف زعلانـه     أو فـــرحـــانه ،
صبـاح مسا أهى دبـلانه     صــاحبة أفكار

* *

وعيون لها ضحكة ف وشك     بس تغشـــك
وتبص من تحت اليَشْمك     تلقى المـنقـار

* *

وعيون كدا يبقم ساهتين     صـــفر وباهتـين
بالشكل ده عيون الخاينين     تضـرب بصفار

* *

وعيـــون تبص وتـتـنـسـفلق     واقفـه شلقلق
وعيـــون تبـــربق وتبحلق     عايزين مســمار

وكانت صحيفة الجمهورية قد خصصت لبيرم يوما فى الأسبوع يدبج فيه صفحة من صحفها بفكاهاته التى يكتبها تارة فى أزجال، وتارة فى مقامات ومقالات فكهة . وأخرى فى الفوازير البارعة. وكان كثيرا ما يقلب بعض قصائد قديمة أو حديثة إلى قصائد مرحة، وهو بارع براعة منقطعة النظير فى الوخز والغمز والتقريع .

## الأدباتيـــة

وكان فى مصر إلى عهد قريب جماعة من « الأدباتية » ينشدون بعض الأزجال فى الموالد يجمعون بها بعض الدراهم من السامعين، وكانوا يعتمدون فى الأكثر على محفوظاتهم، وقد ينشئون بعض الأزجال من إنشائهم. وأحيانا يحملون « دربكّة » صغيرة يضربون عليها كما يضربون على صاجات، وقد يلبسون طرابيش، وتراهم يحركون أزرارها حركة دائرة ليضحكوا الناس، ومن أزجالهم المشهورة :

أنـــا الأديب الأدبـاتى ألم العيش تحت بطاطى

ولعبد الله نديم حادثة مشهورة مع طائفة منهم فى مولد السيد أحمد البدوى بطنطا، إذ نشبت بينه وبين الأدباتية هناك معركة زجلية حامية كان النصر فيها حليفه، وهى مروية بترجمته فى كتاب أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لأحمد تيمور.

## فى الكتابات الأدبية

هذه الطوابع الفكاهية طُبعت بها كثير من الكتابات عند بعض أدبائنا البارزين، وليس معنى ذلك أننا نجدها فى أدبنا الفصيح بمقدار ما نجدها فى أدبنا الشعبى، ولكنها موجودة به على كل حال، وقد

اشتهر بها الشيخ عبد العزيز البشرى - فى كتاباته الأدبية على نحو ما مر بنا - ونراها بارزة فى ملهاة الست هدى لشوقى، وهى تبرز أيضًا عند توفيق الحكيم فى يوميات نائب فى الأرياف وفى بعض أقاصيصه، وتتجلى كذلك فى كتابات محمود تيمور وقصصه، كما تتجلى عند المازنى بصورة بديعة فى كثير مما كتب من قصص وكتب ومقالات، ولذلك يحسن أن نخصه بكلمة.

## إبراهيم عبد القادر المازنى

كان - رحمه الله - فى طليعة أدبائنا المثقفين بالثقافة الغربية، وكان يُعْجب أكثر ما يعجب بكتاب الغرب الساخرين من أمثال مارك توين الأمريكى وتورجنيف وهاتزيباشف الروسيين، وكأنما التقت الروح الفكهة المصرية عنده بالروح الفكهة الغربية وما تطوى من سخرية وتهكم على طبائع البشر ومفارقات الحياة.

وبذلك اكتملت له فى أدبنا الحديث شخصية أدبية ساخرة بكل ما فى الحياة من أشخاص وأشياء وآمال وآلام. ونحن نجد هذه الشخصية ماثلة فى مقالاته الأولى التى نشرها بعنوان « قبض الريح » وهى قطع من الأدب الرائع، ومن طريف ماجاء فيها هذا النقد الساخر للنساء وقصهن لشعورهن تشبها بالرجال، وتشبه الرجال بهن فى هندمة الملابس وأناقة الأزياء، يقول:

« الناس فى هذه الأيام آنق أزياء وأنظف ثيابا، وأبهج بِزَّة منهم

فى أى عهد مضى ، ولست أذكر أنى قبل خمسة وعشرين عاما كنت أرى ( أفنديا ) يلبس طربوشا مبطنا بالخوص والحرير ، أو يرتدى غير السترة الإستامبولية القديمة ذات الزرارين اللذين يجمعان طرفى بَنيقتها على الرقبة والتى يبدو فيها المرء كأنه مربوط من عنقه ، ولم يكن الشيوخ يعنون على الأعم بإحكام التفصيل ودقة انسجام القفطان أو الجبة على أبدانهم ، أو يتحرون أن يكون لون الحزام مجاوبا لصبغة القفطان أو بأن تكون لفة ( الشال ) على طربوش العمامة بارعة الشكل تخفى من الطربوش بقدر وتبدى منه بقدر . أما النساء فكان زيهن إذا برزن إلى الشوارع يصدّ العين عن النظر ولم يكن الواحد يدرى أهى آدمية تلك الملفوفة فى ملاءتها أم حشوها امرأة تبعثرها الريح . فالآن صارت العين تتعب من النظر إلى مجالى الذوق حتى فى الطرقات ودع عنك المجتمعات والسهرات . وصحيح أن الرجال والنساء تقاربوا . حسن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . لا أدرى ممن سمعت أو أين قرأت أن الله سبحانه وتعالى وكّل إلى ملك معين من ملائكته أن يسبح بحمده – جل وعلا – على أن أنعم على الرجال باللحى وعلى النساء بالشعر الطويل . والله وحده أعلم بصحة ذلك . ولكنى أحسب الملك الموكول إليه هذا الواجب – إن صح الخبر – قد جدَّت على صوته نبرة تهكم لاذع علينا نحن بنى آدم الفانين . ومع ذلك لماذا ؟ أمن أجل النساء يقصصن شعورهن ويتشبهن بالرجال فى بعض أرديتهم وأن الرجال يحلقن – معذرة

فسيختلط الأمر بكرهى وكرهكم - يحلقون شواربهم ولحاهم ، ويتخذون من الثياب ما لا يخلص الهواء بينه وبين الجسم ، أمن أجل ذلك يكون الأمر مدعاة لنبرة سخر ترتفع مع تسبيحة الشكر . نسيت الحرب العظمى وما أفقدت الرجال من خسارة فادحة فى مادة الرجولة لا تعوض فى الأجيال ، وكيف احتاج الأمر أن يحل النساء محل الرجال وأن يملأن فراغهم فى شتى الأعمال ، وكيف أنمى ذلك صفات الذكورة فيهن . ثم انتقلت عدوى ذلك من الغرب إلى الشرق كالعادة.

وينشر المازنى بعد ذلك مجموعة من مقالاته الأدبية البديعة باسم « صندوق الدنيا » وهى مقالات ساخرة فى أكثرها. تنتشر فيها فكاهته أو دعابته المستملحة ، وقد جاء فى تقديمها :

« كنت أجلس إلى الصندوق فى أيام طفولتى وأنظر إلى ما فيه ، فصرت أحمله على ظهرى وأجوب به الدنيا ، أجمع مناظرها وصور العيش فيها ، عسى أن يستوقفنى نفر من أطفال الدنيا الكبار فأحطّ ( الدكّة ) وأضع الصندوق على قوائمه وأدعوهم أن ينظروا ويعجبوا ويتسلوا ساعة بملاليم قليلة ، يجودون بها على هذا الأشعث الأغبر». ونكتفى من هذا الصندوق الفكه بحلاق القرية، يقول: « وقعت لى هذه الحادثة فى الريف منذ سنوات عديدة قبل أن تتغلغل المدنية إلى قراه ، وكنت أنا الجانى على نفسى فيها ، فقد عرض علىَّ مضيفى أن أستعمل موساه ، فأبيت ، وقلت : مادام

للقرية حلاق فعلىَّ به. فحذرنى مضيفى وأنذرنى ووعظنى ، ولكنى ركبت رأسى وأصررت أن يجىء الحلاق فجاء بعد ساعات يحمل ما ظننته فى أول الأمر مخلاة شعير ، وسلم وقعد وشرع يحيينى ويحادثنى ، حتى شككت فى أمره ، واعتقدت أن الحلاق شخص آخر وأن هذا الجالس أمامى ليس سوى طلائعه. ولما عيل صبرى سألته عن حلاق القرية ، فابتسم ومشط لحيته بكفه وأنبأنى أن الحلاق محسوبى يعنى نفسه . فلعنته فى سرى ، وسألته متى ينوى أن يحلق لى لحيتى أم لابد أن يضرب بالرمل والحصى أولاً ويحسب الطالع قبل أن يباشر العمل ؟ فلم يفهم ، وأولانى صدغا كث الشعر ، وقال : هيا ، فظننته أصم وصحت به : أريد أن أحلق ، فسره صياحى جدا ، فدنوت من أذنه وسألته هل فى القرية فيل ؟ فقال :-فيل ؟ لماذا . فأشرت إلى المقص فضحك وقال : هذا مقص حمير ولا مؤاخذة ، فقلت : ولماذا تجيئنى بمقص الحمير ، أحمارا ترانى ؟ . ويظهر أن معاشرة الحمير بلدت إحساسه ، فإنه لم يعتذر لى ولا عبأ بسؤالى شيئا ، ثم أخرج موسى من طراز المقص و « مكنة » من هذا القبيل أيضا . فعجبت له لماذا يجئ إلىَّ بكل أدوات الحمير ؟ وسألته عن ذلك فقال : إن الله مع الصابرين . وبعد أن أفرغ مخلاته كلها انتقى أصغر الأدوات ، وأصغرها أكبر ما رأيت فى حياتى ، ثم أقبل علىَّ ، وقال : تفضل . قلت : ماذا تعنى ؟ قال : اجلس على الأرض ، قلت : ولماذا بالله ؟ قال : ألا تريد أن تحلق ؟

قلت ألايمكن أن أحلق وأنا قاعد على الكرسى ؟ قال : وأنا ؟ قلت فى سرى : وأنت تذهب إلى جهنم ونعم المصير . وهبطت إلى الأرض كما أمر ، ففتح موسى كالمبرد، فقلت إن وجهى ليس حديدا يا هذا ، قال : لا تخف إن شاء الله . ولكنى خفت بإذن الله ، ولا سيما حين شرع يقول : باسم الله ، الله أكبر ، كأنما كنت خروفا ، ويبصق فى كفه ويشحذ الموسى على بطن راحته . ثم جذب رأسى فذُعرت ونفرت ووليت هاربا إلى أقصى الغرفة . فقال ماذا ؟ قلت أتريد أن تحلق لى بمبرد ومن غير صابون ؟ قال : ماذا يخيفك ؟ قلت يخيفنى؟! لقد دعوتك لتحلق لى لحيتى لا لتبرد شعرها، قال: يا « افندى » لا تخف . وأسلمت أمرى لله وعدت فقعدت أمامه ، فنهض على ركبتيه ، وتناول رأسي بين كفيه ، وأمال صدغى إليه ، ثم وضع ركبتيه على فخذى ، ولف ذراعه حول عنقى ، فصار فمى مدفونا فى صدره فصحت أو على لأصح جاهدت أريد الصياح لعل أحدا يسمعنى فينجدنى ، غير أن طيات ثوبه كانت فى فمى ، أما رائحة الثوب فبحسب القارئ أن يعلم أنها أفقدتنى الوعى . ولا أطيل على القارئ ، فقد أهوى الرجل بموساه على وجهى ، فسلخ قطعة من جلدى ، فردنى الألم إلى الحياة وآتانى القوة الكافية للصراخ ، على الرغم من الكمامة . ووثبت أريد الباب ، ولكنه كان على كبر سنه أسرع منى ، وما يدرينى لعله كان يتوقع ذلك ، وعسى أن يكون المران قد علمه أن يكون يقظا لأمثال هذه

المحاورات ، فردنى بقوة ساعده ، فتشهدت وتذكرت قول المتنبى :

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ  فمن العجز أن تموت جبانا

ثم جاء هذا السفاح بطست يغرق فيه كبش ، ووضعه تحت ذقنى ، وصب مادة على وجهى وفى صدرى وعلى ظهرى ، ليغسل الدم الذكى الذى أراقه ، وأخرج من مخلاته منشفة هى بمسحة الأرض أشبه ، فاعتذرت ، وأخرجت منديلى ، وسبقته به إلى وجهى . وهى معركة لا تزال بجلدى منها ندوب وآثار » .

وفى صفحة أخرى من صندوق الدنيا نراه يسير على ظهر حمار فوق قنطرة على ماء ، يقول : « فلما توسطها الجحش بدا له أن يقف وراقه منظر الماء ، فأجال فيه عينيه برهة ، ثم خطا إلى حافة الجسر ، ولم يكن له حاجز ومد عنقه إلى الماء ، فظننت أنه قصير النظر ، وأنه يفعل ذلك ليكون أقدر على رؤية خياله فى الماء واجتلاء طلعته البهية فى صقاله ، ولكنهم قالوا لى إنه كان يريد أن يشرب ، فنزلت عنه ، وقلت له يا عزيزى إن من دواعى أسفى أنى مضطر أن أتركك إلى الماء وحدك فإن ثيابى يفسدها الماء ، وهى غالية إذا كانت حياتى رخيصة . ولكن بعد أن فكر قليلا غيرَّ رأيه ، إما لأن الصورة التى طالعته فى صفحة الماء كانت مضطربة مشوهة وعجز الماء عن أداء ما فيها من جمال وروعة ، أو لاعتبارات حمارية أخرى لم يكاشفنى بها » .

وتسرى هذه الروح الفكهة فى قصص المازنى على نحو ما تسرى فى مقالاته ، فمن ذلك وصفه لخادمته فى كتابه أو مجموعته القصصية « عود على بدء » وهى تجرى على هذه الشاكلة :

« لا أطلب منها شيئا إلا وتجيئنى بخلافه ، أقول هاتى الكبريت ، وليس فى لفظ الكبريت ولا فى حروفه ما يمكن أن يلتبس بالجبن الرومى ، وهى ليست بالصماء ، فإن سمعها كسمع القطة ، وأنا خفيض الصوت ، ولكنى أتوخى معها أن أزعق وأصيح حتى يبحّ صوتى ويوجعنى حلقى ، وأمرض يوما أو يومين . ومع ذلك لا تكاد تسمعنى أطلب الكبريت حتى تقول حاضر ، وتعمد إلى ملاءة سوداء تلفها على نفسها – فانها حَيِيَّة – وتخرج ، فتشترى لى جبنا ، قد يكون روميا غير مزيف أو مقلدا ، ولكنه لم يخطر لى على بال ولا كانت لى رغبة فيه . وأراها مقبلة علىَّ ، تحمل على كفيها صينية عليها طبق فيه الجبن الرومى وشوكة وسكينة وفوطة ولقمة ، فإنها تدرك من تلقاء نفسها وبغير حاجة إلى تلقين أن الجبن الرومى لايؤكل وحده فلابد من خبز معه ، ومادام سيدها يأكل وقد اشتهت نفسه الجبن الرومى فهل تتركه يوسخ يده؟ معاذالله ، وهذا هو تفسير الشوكة والسكين . وأنظر إلى هذا الذى على يديها فأتميز من الغيظ ، وأكاد أطق وأنفلق . ولكنى ألمُّ نفسى بجهد ، وأهز رأسى وأروح أتعجب لقدرة ربى على خلق كل هذه الأصناف من الناس . هذه امرأة لها كل مالى تقريبا من الأعضاء ، وليس ينقصها

شيء ، وهى تتكلم العامية التى نتكلمها ولا أعرف لها لغة غيرها ، ومع ذلك لكل لفظ فى هذه اللغة معنى عندها غير معناه عندنا فالكبريت معناه الجبن الرومى ، والكتاب معناه طاحونة البن ، والكلب معناه الخيط والإبرة ، والكمّون معناه السجاير . حتى لقد خطر لى أن الألفاظ التى تبدأ بالكاف هى التى انفردت عندها بهذا الحال المقلوب .

وأنا أحصى هذه الألفاظ إيثارا للراحة وأثبت معانيها إلى جانبى ، ليتسنى لى أن أخاطبها بلغتها ، فأقول لها مثلا : خذى اشترى لى كمونا ويكون مرادى السجاير أو هاتى كلبا وخيَطى هذا الزرار . وإذا مررت بالصانع الذى يصلح طواحين البن قلت : « خذى الكتاب فأصلحيه عنده او اشترى لنا كرنبا أى بترولا » .

وبهذه الفكاهة وما تحمل أحيانا من تهكم وسخرية كان يكتب حتى عن نفسه وزوجه وأهله ، ومن حديثه الفكه عن نفسه فى مجموعته القصصية «فى الطريق » قوله :

«لست أخشى اللصوص، فما معى ولا فى بيتى ماأخشى عليه الضياع، وأتقى أن أُمْنىَ فيه بالخسارة، ولو أن لصا كريما فيه مروءة دخل بيتى – أو حيث أقيم فما هو بيتى – وحمل ما فيه من متاع لحمَّلته شكرى ولبعثت بنسخة منه إلى الصحف فإن من اللؤم أن يقابل الأحسان بأقل من الشكر . وإن فى قولى متاعا لتجوُّزا فى التعبير وإغراقا فى حسن الظن بالقراء ، فما أرى لى متاعا فى شيء

مما حولى . وسبب آخر يجرِّئنى على لقاء اللصوص ويجعلنى لا أتهيبهم ، وذلك أنى كما تعلم - أو كما لا تعلم - ضامر ضاو ظاهر الضآلة بادى الضعف . وأوجزُ تعريفٍ بنفسى يحضرنى الآن هو إنى امرؤ فارغ الثياب ». وفى موضع آخر يتحدث إلى زوجته على هذا النحو :

« إن من الواضح أن تربيتك ناقصة جدا! هذا أنا بجلال قدرى أكلمك منذ عشر ساعات وخمس وعشرين دقيقة وثلاث وأربعين ثانية وأنت لا تجيبين » فقالت زوجتى أخيرا وألقت مابيدها ، وكان شيئا تطرزه أو لا أدرى ماذا تعنى به : « إنى لست اليوم كفؤا لك ولهزلك فاسكت من فضلك » . قلت : « هذا بديل جميل من الاعتذار ، ألا تستحين يا امرأة ؟ ثم ما هذا الذى تتشاغلين به عن التقاط الحكمة من فم سيدك وتاج رأسك وبعلك ؟ » قالت : « أرجوك ، أرجوك يا مسلم ، ثم إن الطباخة خرجت . » فانتفضت واقفا ، وصحت : «نهارك أسود » .

وبهذا الأسلوب الفكه الساخر كان المازنى يكتب بعض مقالاته وقصصه مستغلا للطبائع ومصورا للمآزق والمواقف ومتخذا من افتراق العقليات والأمزجة مادة خصبة لما يريد من ألوان الفكاهة وصورها التى تعبر تعبيرا دقيقا عن ظرفه وخفة روحه مستخدما لذلك أقرب لفظ وأسهل أسلوب .

* * *

ولعل فى كل ما سبق ما يدل دلالة واضحة على أن الفكاهة تتعمق روح المصريين من أعمق عصورهم إلى عصرنا الحديث ، فهى الزبد يعلو دائما على سطح حياتنا ، بل لكأنها الجوهر النفيس فى مزاجنا وطباعنا ، وهى لذلك دائمة البريق واللمعان فى مجالسنا ومحافلنا وعلى شفاهنا وأفواهنا .